

مكتبة الشعراوى الإسلامية



محمد متولى الشعراوى

رأة فى القرآن


مكتبة
الشعراوى
الإسلامية
المرأة
فى القرآن الكريم
محمد متولى الشعراوى
قطاع الثقافة

بسم الله الرحمن الرحيم

من وحى الفيض

قضـــية القضـايا

بقلم : محمد السنراوى

كان لخـواطر الإمام الشـعراوى حول قـضيـة المرأة إلهـامـات من وحى النصِّ القـرآنى.. لأن القـرآن الكريم جعل للمرأة كل تكريم..

فعاشت مـاضيها البعيـد محرومة من كرامـتها، وفى ظل الإسلام وجدتْ رعاية التكريم.

وعناية التعظيم..

وجدت قضـيتها.. حكم فـيها خالقُهـا ولا حكم بعده، فقال تعالى :

﴿يَـٰأَيُّهَـا النَّاسُ اتَّقُـوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِـدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَـاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَـامَ إِنَّ اللَّهَ كَـانَ عَلَيْكُمْ رَقِـيـبًـا (١)﴾

[النساء]

فقد أحاطها الله بالتقـوى فى بدئها، وأمر بالتقوى فى مسيرتها، إنها قضـية هو حاكمها، وليس لأحد الحق فى

أن يحكم فيـها إلا إذا كان مـتمردا أو مـتسلقاً أو مـيَّالاً للغرب بُغْية الفساد فى الأرض.

فإلى الأم والأخت والحبيبـة نسوق ما قاله الإمام من فـيض المـصدر الأصـيل، وذلك لإحـقـاق الحق وإزهاق الباطل، وفى مستقـبل الأيام ما يثبت أن ليس للمرأة من منصف إلا القرآن، وليس لها من تكريم إلا فى الإسلام.



الفصل الأول

الرجل والمرأة

﴿يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ①﴾

[النساء]

ما من قضية أثارت جدلاً فى كل بيت مسلم.. وفى كل بيت غير مسلم.. مثل قضية الأحكام الخاصة بالمرأة فى القرآن الكريم.. وما حُورِبَ الإسلام من المستشرقين ومَنْ سار على دربهم.. مثلما حورب بقضايا المرأة فى تعدد الزوجات.. وميراثها.. الذى يبلغ نصف ميراث الرجل.. أيضا شهادتها.. حيث إن شهادة الرجل بشهادة امرأتين.. وغير ذلك من الأحكام.. التى تعمدوا فيها القول بالباطل والمفاهيم الخاطئة.. لإثارة الناس.. ولو علموا ما تجاهلوا.

لكن فجأة.. وبعد أن طحنت التجربة المرأة فى أوربا وأمريكا.. وبعد أن أصيبت مجتمعاتهم بأمراض عضوية وخلقية.. إذا بهم لا يجدون طريقاً إلا الطريق الإسلامى.. مضطرين إليه اضطرارا.. بعد أن بينت لهم التجربة النتائج المدمرة التى يمكن أن تحدث عندما يُشَرِّعُ الناسُ لأنفسهم.. ويتركون ما شرعه الله لهم..

لقد قالوا : لا طلاق.. زواج كاثوليكي.. امرأة واحدة فقط.. وأخذوا يتباهون أنهم وجدوا الحل الأمثل للحياة.. وإذا بالكنيسة الكاثوليكية نفسها - التى تبنت هذا القانون - هى التى تلغيه تحت ضغط المشاكل الهائلة التى حدثت منه.. وإذا بهم يوم إلغاء هذه الأبدية وإباحة

الطلاق.. تقام أربعون ألف قضية طلاق.. فى يوم واحد.. فى روما وحدها!! وذلك نتيجة للإرهاب الفكرى المتسلط.

وقالوا : لا ترضعوا أولادكم.. وأنشأوا شركات تصنع اللبن للطفل.. مدعين أن هذا اللبن الذى يصنعونه هو أفضل من لبن الأم.. الذى خلقه الله سبحانه وتعالى.. وهو العليم بخلقه.. وما يصلح، أو ما لا يصلح لهم..

ثم مرت السنوات.. وللأسف الشديد.. الدول الإسلامية قلدت دول الغرب.. وقلد أطباؤنا أطباءهم.. ثم ماذا حدث؟.. أثبتت الأبحاث أن لبن الأم.. هو الذى يعطى الطفل المناعة طوال حياته.. وأن البعد عن لبن الأم أنشأ أجيالا مريضة جسدياً ونفسياً وعقلياً.

وأفاقت المجتمعات الغربية.. فأخذت تصيغ قصائد المدح فى لبن الأم وفوائده.. وما يفعله فى الطفل.. وإذا بكل وسائل الدعاية.. تدعو الأمهات لإرضاع أطفالهن.. لأن الطفل لا يأخذ من ثدى أمه اللبن فقط.. ولا الصحة فقط.. ولكن يأخذ منه الحنان.. والشعور بالأمان والانتماء للأسرة.. وكل ما هو طيب فى هذه الحياة.

الفكر المرفوض

ونحن لأننا نجرى ونلهث، وراء الحياة المادية الغربية، التى بهرتنا بقشورها، وكما لهثنا وراءهم، فى بيان مزايا ألبان الأطفال التى تنتجها الشركات، لهثنا وراءهم ندعو المرأة إلى ضرورة إرضاع طفلها عامين كاملين، ونسينا القرآن الكريم الذى أمرنا بذلك منذ أربعة عشر قرناً، ونسينا قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ(١) كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ . .(٢٣٣) ﴾

[البقرة]

وهكذا عاد العالم كله، مكرهاً إلى شرع الله، لم يعد عن إيمان، ولا عن اعتناق للدين، ولكنه عاد بعد تجارب عديدة وأليمة، أراد الله سبحانه وتعالى برحمته أن يقينا شرها.. ولكننا تركنا حكم الله، ثم عدنا مكرهين إليه.. لأن الحياة لا تستقيم بدونه.

(١) الحوْل : السنة . والحولان مثنى أى سنتان.

وتحدث الغرب عن حرية الجنس.. وكيف أن المرأة لابد أن تكون لها الحرية فى أن تفعل ما تشاء، على أنها حرية شخصية، وقد وصل الحد بدولة كبريطانيا، أنها أباحت الشذوذ الجنسى، واعتبرته أمراً مشروعاً ومباحاً.. ثم ماذا حدث؟!

اكتشفوا مرض الإيدز الذى لا علاج له.. وإذا بأبواق الإباحة فى العالم، ودعاة الحرية الشخصية وغير ذلك.. يقولون: إنه لا علاج لهذا المرض إلا بالتمسك بالفضيلة.. وأن مرض الإيدز لا يصيب الزوج وزوجته إذا ما اكتفى كل منهما بالآخر، ولكنه يصيب كل من يتجاوز هذه الحدود.

وعاد العالم يدعو إلى التزام الفضيلة والتمسك بها، وهو ما أمر به الله تبارك وتعالى.. ولكن المجتمعات الغربية بعدت عنه بدعوى الحرية الشخصية.. وإذا بها تعود.. ليس عن إيمان كما قلت، ولكن لأنها قاست النتائج المُرَّة لمنهج حياة البشر.. وإذا بها تعود وتطالب بالفضيلة.. وتحث الناس عليها.. ولكن لأسباب دنيوية.. وليس لأسباب دينية.

وهكذا فى كل شىء، خالف الناس فيه شرع الله فى أمور الدنيا.. حتى نظام البنوك الذى يستخدم فيه الربا..

أوجد من المشاكل الاقتصادية فى العالم ما جعل الدول الغنية تزداد غنى، والدول الفقيرة تزداد فقراً، حتى وجد من كبار رجال الاقتصاد الغربيين.. من يقول: إن اقتصاد العالم لن يعتدل، إلا إذا كانت الفائدة تساوى صفراً، ولو أنه قرأ القرآن الكريم، لوجد أن الله تعالى قد أخبرنا بذلك منذ أربعة عشر قرناً، ولكننا نبذنا ما قاله الله.. ووضعنا نظاماً بشرياً.. أصاب الدنيا بالكوارث..

المرأة قبل الإسلام

هذه مجرد إشارات .. لموضوعات سنتناولها بالتفصيل فى هذا الكتاب؛ لنرد على كل ما يقال.. عن أحكام المرأة فى الشريعة الإسلامية، سواء كان الذين يقولونه ينتمون زيفاً إلى الإسلام، أو كانوا ممن يحاربونه علناً.

وقبل أن نبدأ الحديث.. لابد أولاً أن نستعرض كيف كانت حالة المرأة قبل الرسالة ثم نبين بعد ذلك كيف أن الإسلام أعاد للمرأة كرامتها وشخصيتها.. وأنزلها مكانة عالية.. لم تكن القوانين الوضعية فى ذلك الوقت.. قد وصلت ولو إلى جزء منها؟

إننا لو أخذنا مثلاً قوانين اليونان نجد أن المرأة كانت تدخل ضمن ممتلكات ولى أمرها، فهى قبل الزواج.. ملك لأبيها أو أخيها، أو من يلى أمرها.. وهى بعد الزواج ملك لزوجها.. فليس لها تصرف فى نفسها.. وهى لا تملك ذلك.. لا قبل الزواج ولا بعده.. وهى تباع لمن يشتريها.. والذى يقبض الثمن هو ولى الأمر!

وفى القانون الرومانى.. كانت المرأة تعامل كالطفل أو كالمجنون، أى لا أهلية لها، وكان لرب الأسرة أن يبيع من يشاء من النساء، ممن هن تحت ولايته، وتظل المرأة تحت سلطان ولى أمرها، سواء كان أباً أو زوجاً حتى الموت.. وله حق البيع والنفى والتعذيب، بل والقتل !

وفى شريعة اليهود.. تعتبر المرأة فى منزلة الخادم عند بعض فرق اليهود، وتحرم الأنثى من الميراث، سواء كانت أماً أو زوجة إذا ما كان للميت ذكور، وهذا موجود فى الأصحاح ٢١ من سفر التكوين.

إن قوانين الأحوال الشخصية للإسرائيليين تقول : إذا توفى الزوج ولا ذكور له.. تصبح أرملته زوجة لشقيق زوجها، أو لأخيه من أبيه، ولا تحل لغيره إلا إذا تبرأ منها ورفض الزواج بها.

وفى القانون الصينى.. كانت القاعدة أن النساء لا قيمة لهن.. ويجب أن يعطين أحقر الأعمال، وفى القوانين الهندية.. لا يحق للمرأة فى أى مرحلة من مراحل حياتها أن تجرى أى أمر وفق مشيئتها ورغبتها، وأن المرأة فى مراحل طفولتها تتبع والدها، وفى مراحل شبابها تتبع زوجها، فإذا مات الزوج تبعت أولادها.

المرأة المفترى عليها بين جهل البشر وتكريم الإسلام

وفى أوربا.. كانت المرأة وقت ظهور الإسلام سلعة.. تباع وتشترى وتعذب.. وتأخذ أشق الأعمال بأقل الأجور.

تلك لمحة سريعة.. عن بعض الأحوال والقوانين.. التى كانت تخضع لها المرأة قبل الإسلام.. ولقد كتب الفيلسوف الإنجليزى «هيربرت سبنسر» فى كتابه علم الاجتماع : إن الرجال كانوا يبيعون الزوجات فى انجلترا، فيما بين القرن الخامس، والقرن الحادى عشر الميلادى..

لقد وضعت محاكم الكنيسة قانوناً، يعطى الزوج الحق فى أن يعطى زوجته لرجل آخر لمدة محددة بأجر أو بغير أجر! وظل هذا القانون مطبقاً حتى ألغى، وفى عام ١٩٣٣.. باع انجليزى زوجته بمبلغ خمسمائة جنيه استرلينى، وألغى القضاء هذا البيع!

ولم يكن للمرأة فى أوربا، حتى فترة قصيرة، حق الحضور أمام القضاء، أو حق إبرام العقود، ولا تملك

البيع أو الهبة، بغير مشاركة زوجها فى العقد بموافقة مكتوبة.

وحتى عام ١٩٤٢.. كان الزوج هو المتصرف فى أموال زوجته، ثم عُدِّلَ هذا، بأن تتصرف الزوجة فى أموالها، بعد أن تثبت أنها ليست أموالاً مشتركة بينها وبين زوجها.

على أننا ونحن نورد هذه الأمثلة، إنما نتحدث عن قليل من كثير.. فنحن فى هذا الكتاب ليس هدفنا مقارنة أوضاع المرأة فى الإسلام بأوضاعها فى دول العالم غير المسلمة، ولكننا نقول: إنه إذا كانت المرأة قد حصلت حديثاً فى أوربا وأمريكا على حقوق ومساواة. فإن الإسلام كان أول من أعطى المرأة حقوقها، وأعاد إليها كرامتها، وأعطاها الحرية فى أن ترفض أو تختار زوجها بحريتها، ولا يتم زواج الفتاة دون استئذانها وموافقتها وبشاهدين، ولها أن توكل والدها، ولها أن ترفض الزوج. ولها أن تخلعه إذا استحالت المعيشة.

إن المرأة فى الإسلام تحتفظ بشخصيتها القانونية المستقلة، ولها حق التملك وحق التجارة، وقد كانت السيدة خديجة - رضى الله عنها - تعمل بالتجارة، وكان رسول الله ﷺ قبل زواجه منها يعمل فى تجارتها، ويرعى لها أموالها.

التكامل بين الرجل والمرأة

وقبل أن نبدأ.. فى مناقشة الموضوع تفصيلاً.. لابد أن نحدد قضية الخلاف على الحقوق والواجبات بين الرجل والمرأة، ذلك أن هذا الخلاف يُثار دائماً لعدم فهم طبيعة الخلق من الله ـ سبحانه وتعالى ـ ذلك لأن الناس تحسب أن الرجل والمرأة خُلقا متنافسين، ولكنهما فى الحقيقة خُلقا متكاملين، أى يكَمل كل منهما الآخر. واقرأ قول الحق ـ سبحانه وتعالى :

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤) ﴾ [الليل]

لقد أراد الله ـ تبارك وتعالى ـ أن يلفتنا إلى قضية التكامل بين الرجل والمرأة، كقضية التكامل بين الليل والنهار.. الليل والنهار مختلفان فى الطبيعة.. فالنهار يملؤه الضوء.. وهو وقت السعى وراء الرزق والحركة، والليل تملؤه الظلمة وهو وقت السكون والراحة والنوم.

كـلاهما ـ أى الليل والنهـار ـ يخـتلفان فى طبـيعـة مهمتهمـا فى الكون. ولكنهما مع ذلك متكاملان فى هذه المهـمة، أى يكمل أحدهمـا الآخر، فلو أن الله ـ سبـحانه وتعـالى ـ جعـل الدنيا كلهـا نهـارا، لتـعب الناس لأنهم لا يجـدون وقتـاً تسكن فـيه النفـوس وتطمـئن القلوب، ولا يجدون الراحـة التى توفر لهم الاستـعداد لاستقـبال الحركة فى الحياة.

ولو أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ خلق الكون كله ليلاً، ما اسـتطاع الناس الحركـة ولا العمل، ولا السـعى على الرزق إلا بصعوبة.

واقرأ قول الحق جل جلاله :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا[1] إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) ﴾ [القصص]

(١) السَّرمَد : الزمن الطويل أو الدائم . [القاموس القويم ١/٣١٢] .

إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يلفتنا إلى أن مهمة الليل والنهار فى الكون هى مهمة متكاملة، وليست متعاندة، أى لا يعاند بعضها بعضاً، ولكن يكمل بعضها بعضاً، وهذا واضح من حركة الحياة.

الإنسان إذا لم يسترح ويسكن ليلاً، لا يستطيع السعى والعمل نهاراً، والإنسان الذى تضطره ظروفه مثلا.. أن يواصل العمل ليلاً ونهاراً، لا يمر عليه يومان، إلا ويكون قد فقد القدرة على العمل والحركة، ولابد أن ينام فترة توازى فترة ليل اليومين اللذين قضاهما مستيقظاً.

النوم بالليل هو الذى يعطى الراحة الحقيقية للجسم، ذلك أن حركة الحياة تهدأ ليلا، مما يتيح للإنسان نوماً عميقًا.. فضلاً عن ذلك فإن النوم ليلاً ـ كما ثبت من الأبحاث الطبية الحديثة ـ يعطى الجسد راحة لا يعطيها له نوم النهار.

كذلك لا يستطيع أحد أن يقول : إن الليل والنهار متعاندان.. بل هما متكاملان.. يكمل كل منهما الآخر. ولكى تستقيم الحياة، لا يستغنى الانسان عن ليل أو نهار.

أيضاً الرجل والمرأة خلقهما الله ـ سبحانه وتعالى ـ متكاملين وليسا متعاندين. الرجل له وظيفته فى السعى

على الرزق، ورعاية زوجته وأولاده، وتوفير أسباب الحياة لهم. والمرأة لها مهمتها فى رعاية البيت وإنجاب الأولاد.. وتكون سَكَناً للزوج عندما يعود إلى بيته متعباً من حركة الحياة، تستقبله بابتسامة تمسح له شقاء اليوم، ويجد كل ما يحتاجه فى بيته معداً، ولذلك قال الله ـ تبارك وتعالى :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) ﴾ [الروم]

وهكذا حدد الله ـ سبحانه وتعالى ـ المهمة المتكاملة للرجل والمرأة، فكلاهما يكمل بعضه بعضاً، لا الرجل يصلح لمهمة المرأة فى إنجاب الأطفال ورعاية البيت، وتربية الأولاد والعناية بهم، ولا المرأة مهمتها الأساسية أن تسعى فى سبيل الرزق؛ لتوفير لقمة العيش للرجل. وليس هذا على مستوى الأفراد والأمم فقط، ولكنه شمول للكون وما فيه ومَنْ فيه، وإن كانت هناك نساء تَسْعَيْنَ على الرزق، فإن ذلك يكون فى حدود إمكاناتها واستعدادها الفطرى مع شمولها بالكرامة، وإحاطتها بكامل الرعاية.

لا يوجد رجل يبقى فى البيت وامرأته تعوله وهو قادر على الكسب، إلا نال احتقار الناس بما فيهم زوجته، ولا توجد امرأة إلا تتمنى أن تعيش فى حماية رجل يوفر لها كل شيء ويرعاها.

تلك هى سنة الله فى كونه بصرف النظر عن الإيمان وعدم الإيمان، ومن تمام الحياة، أن يؤدى كل إنسان مهمته فيها، أما قلب الموازين، فلا ينجم عنه إلا الشقاء للإنسان.

ولكن ما الذى حدث؟.. أخذت القضية غير مسارها.. وأصبح هناك شبه معركة بين الرجل والمرأة، فلا المرأة قنعتْ بدورها ومهمتها، ولا الرجل رضى بمهمة المرأة فى الحياة، بل كلاهما دخل فى معركة متعاندة. وهذا هو الذى أوجد القضية التى ما كان يجب أن توجد لو أن كلاً منهما رضى بمهمته فى الحياة.

إنها فتنة صنعها الحاقدون على أنفسهم وعلى كل القيم النبيلة بُغْية الظهور العارض والالتفاف للذات لإثبات وجودهم، ولو كان الإثبات على خطأ.

لكن المرأة أصرَّتْ على أن تُزاحم الرجلَ فى العمل، والرجل استسلم لمزاحمة المرأة، بَل ودفعها إلى ذلك، فما الذى حدث؟.. حدث اختلال فى المجتمع. بعض

الناس يقول : إن الضرورة قضت عمل المرأة.

ونحن لا نتحدث هنا عن وضع متفرد يمثل ظاهرة عارضة نُعالج بمعرفتها القيم على طول الزمن ومرً الأيام، ولكننا نتحدث عن الأمور الطبعية التي يُقرها العقل، وينادى بها الشرع وتحيا بها الحياة فى ظل أسرة كريمة.

عمل المرأة فى الميزان

إن قضية عمل المرأة.. قد أضاعت الأجيال من الأولاد.. فافتقد الابن حنان الأم ورعايتها، ونشأ فى حالة اضطراب نفسى.. نشهدها الآن فى الأجيال الشابة التى بعدت عن حنان الأم ورعايتها، وتعليم أولادها القيم فى الحياة.

قد يقال: إن دُور الحضانة قد حلَّتْ هذه المشكلة، وأن المرأة يمكنها أن تترك أولادها فى دور الحضانة فى رعاية مشرفات مثقفات. نقول : إن هذا كلام لا يتفق مع الواقع. فلا توجد امرأة تستطيع أن تعطى حنانها، واهتمامها لمائة طفل، ذلك أنها إذا أعطت هذا الحنان والاهتمام لطفلين أو ثلاثة فإنها ستهمل باقى الأطفال، فضلاً عن أن حنان الأم عاطفة طبيعية.. وضع الله - سبحانه وتعالى - فيها من مقومات الرعاية والحب والاهتمام ما يحتاجه الطفل، ولا يمكن لأى امرأة أن تعطى لأطفال غيرها نفس الحنان الذى تعطيه لأولادها.

ومن هنا مهما ارتقت مشرفة الحضانة.. فإنها لا تستطيع أن تعطى الطفل حنان الأمومة، بل يبقى

الشيء ناقصاً. ولعل الحيرة النفسية التي يعانيها جيل الشباب في العالم كله، إنما تعطينا صورة لما يمكن أن يحدث عندما يبتعد الطفل عن حنان أمه. فهو ينشأ قاسياً عليها، فاقد الاحساس بالانتماء إليها. روابط الأسرة عنده مفككة، فاقد للقيم الاجتماعية، ولشعور التضامن والانتماء وغير ذلك. وينتج عن ذلك رعيل متشرد، كما نراه على مسرح الأحداث والحوادث.

وفضلاً عن هذا كله.. نكون قد حمّلنا المرأة فوق طاقتها.. لأنها مكلفة بأعباء البيت وأعباء العمل، فهي لا تجد وقتا لاعداد الطعام. ولذلك نجد عدداً من الزوجات يَقُمْنَ بإعداد الخضار في مكاتبهن (!!) مشغولات وهن في العمل بما يتطلبه البيت من طعام ورعاية وغير ذلك.

الواحدة منهن تعود من عملها مُتْعبة لتجد أنها لابد أن تعد الطعام، وترعى شئون بيتها وأولادها. فإذا انتهت من هذا كله، وعاد الزوج إلى البيت، وجد زوجته في غاية الإرهاق، والزوج له مطالب.. وأهم هذه المطالب أن يجد سكناً في بيته، وامرأة تستقبله لتمحو من نفسه تعب النهار وشقاءه..

ولكنه بدلاً من ذلك يجد زوجة مرهقة، لا هي سكن ولا هي مستريحة الأعصاب، ولا هي قادرة على أن

تستقبل زوجها بابتسامة، مهمتها قد فسدت. كل هذا لأننا خرجنا عن المفهوم الحقيقى لمهمة المرأة فى الحياة.

ولو نظرنا إلى عمل المرأة لأشفقنا عليها، لأنه فى هذه الحالة ستكون مهمتها أصعب وأشق من مهمة الرجل؛ لأن عمل الرجل هو السعى فى سبيل الرزق، ثم الراحة بعد ذلك ، أما عمل المرأة فهو السعى فى سبيل الرزق.. ثم الحمل، وأثناء الحمل المرأة تعانى.. بحيث لا تجد للحياة استقراراً ولا أمناً.

والله – سبحانه وتعالى – يقول :

﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ[1] ثَلاثُونَ شَهْرًا.. (١٥) ﴾ [الأحقاف]

وهكذا نرى أن الحمل للأم، يجعلها تعانى، ويجعلها محتاجة إلى رعاية خاصة وقت الحمل، ولذلك فهو شىء ليس محبباً لأن فيه مكاره. فالأم الحامل ليست كالزوجة غير الحامل فى نشاطها وحركتها وتمتعها بالحياة.. بل تحس أنها ثقيلة فى حركاتها.. وكلما تقدم الحمل أحسَّت بالثقل؛ لأن هناك إنساناً آخر يتكون فى داخلها.

(١) الفصال : الفطام؛ لأن الطفل به ينفصل عن أمه.

ويلفتنا الحق ـ جل جلاله ـ إلى هذه الحقيقة فى قوله تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا[1] حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت[2] دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩) ﴾ [الأعراف]

وهكذا نرى أن حمل المرأة يبدأ خفيفاً، ثم بعد ذلك يثقل عليها، وبهذا تصبح حركتها صعبة، ويكون العمل عليها ثقيلاً، وكلما زادت شهور الحمل، كان العمل على المرأة أكثر مشقة. والمرأة بطبيعتها مخلوق ضعيف.. ولذلك يقول الحق ـ سبحانه وتعالى :

﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا[3] عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ.. (١٤) ﴾ [لقمان]

---

(١) تغشاها : للمبالغة فى التغطية، وكُنِى به عن الاتصال الجنسى. [القاموس القويم ٢/ ٥٤].

(٢) أثقلت الحامل : كبر حملها ودخلت فى الأشهر الأخيرة أو فى الأيام التى تسبق الوضع [القاموس ١/ ١٠٨].

(٣) الوهن : الضعف، فالضعف يتزايد كلما ثقل الحمل.

فى هذه الآية يلفتنا الله - تبارك وتعالى - إلى أن المرأة بحكم خلقها ضعيفة، وأن الحمل يزيدها ضعفا على ضعف. إذن فهذه مشقة تتحملها المرأة بالإضافة إلى مشقة العمل فى البيت وفى الوظيفة، فتزيدها إرهاقاً، حتى إذا وضعت فهى محتاجة إلى فترة طويلة لتستعيد قواها؛ ولذلك فهى تلازم الفراش عدة أسابيع بعد الولادة.

ثم يأتى الطفل وهو محتاج أيضاً إلى رعاية وعناية.. من رضاعة وتغيير مستمر لملابسه الداخلية والخارجية، وإعداد الطعام له على فترات قصيرة، وتذهب الأم إلى عملها، وقلبها مشغول بطفلها، لا تستطيع أن تعمل، ولا أن تفكر تفكيراً سليماً، ولا أن تعطى انتباهها للعمل، لأنها مشغولة بشيئين، والله سبحانه لم يجعل لأحد منا قلبين فى جوفه، وتعود إلى بيتها لتجد طفلها محتاجاً إلى أن تعد له أشياء، وتجد زوجها محتاجاً إلى أن تعد له أشياء، وإذا كان لها أولاد آخرون، فهم محتاجون أيضاً منها إلى أشياء تعدها لهم.

وهكذا نرى أن الحمل عليها يكون ثقيلاً جداً أكثر من حمل الرجل؛ وهذا يجعلها مرهقة ويخرجها عن مهمتها فى الحياة، وهى أن تكون سكنا لزوجها، والله - سبحانه وتعالى - يقول :

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا .. (١٨٩) ﴾ [الأعراف]

إذن: السكن هنا.. وهو المهمة الأساسية.. للمرأة فى الحياة قد ضاع، وضاع معه السلام والاستقرار فى البيت والأسرة، وحملنا المرأة فوق طاقتها.

إن الإسلام.. قد وضع شروطاً لعمل المرأة، ووضع مهاما لابد أن يقوم بها المجتمع ليعاونها فى عملها. وهذا ما سنتعرض له إن شاء الله فى فصل قادم من هذا الكتاب.. عن قصة موسى وابنتى شعيب، وكيف حددت لنا هذه القصة ظروف عمل المرأة، وواجب المجتمع نحوها.

وبإجمال نقول : إن الإسلام حين جاء رفع مكانة المرأة بالنسبة للأحوال التى كانت سائدة فى العالم حينذاك، وأنه أعطاها حريتها وكفل لها شخصيتها المستقلة، وكفل لها كرامتها، وأن الرجل والمرأة فى الحياة، يكمل كل منهما الآخر. وأنهما ليسا متعاندين، بل متساندان، وأن اختلال هذا التساند، هو الذى يوجد الشقاء فى المجتمع، ويحمل المرأة فوق ما تطيق.

وأمام تكريم الإسلام للمرأة وإنصافها. نلمس ذلك جلياً فى هذه المقارنة، المرأة فى ظل الإسلام فى

حصانة نفسها حتى تجد الزوج المناسب، وفى ظل الفكر الغربى الوافد تستسلم المرأة للرجل لغرض عارض.

فى الإسلام المعايشة مستمرة وتدوم بالمعروف، وهى مسئولة وقلبها على بيتها بالهدوء الساكن مع عطف يُظلل الأسرة والأولاد.

وفي ظل الفكر الوافد تعاشر المرأة الرجال بالمال والعشق المؤقت، مهملة بدون مسئولية، قلبَها مُوزَّعٌ بين العشّاق، مرهقة محرومة من الولد مفصولة عن الانتماء.

وسنناقش إن شاء الله بالتفصيل الموضوعات التى يكثر عنها الكلام، على أساس أنها انتقاص لحقوق المرأة فى الإسلام.. لنبين أنها اكتمال لهذه الحقوق، وارتفاع بالحق إلى مراقى الحضارة المتعقلة.



الفصل الثانى

تعـــدد الزوجات

إذا كنا سنناقش.. بعض أحكام القرآن الكريم بالنسبة للمرأة.. فإننا لا نناقشها إلا لتوضيح مفاهيمها.. ولكننا لا نناقش الحكم.. لأن الحكم صادر من الله سبحانه، ومادام صادراً من الله - جل جلاله - فإن غاية مهمة العقل فى هذه الحالة، هو التأكد أن الحكم من الله سبحانه.

يقول الحق :

﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ... (٢٤)﴾ [الأنفال]

إذا وصلنا إلى هذه النقطة.. نكون قد وصلنا إلى نهاية مهمة العقل، فيصبح بعد ذلك التسليم والطاعة، والعيب فيمن يريد مناقشة الأديان أن يأتى بجزئيات الأوامر الدينية ويناقشها.. وأحكام الله لا تناقش كجزئية.. ولكنها تناقش من القمة أولا.. أهى من الله أم لا؟.. أبلغها رسول الله ﷺ لنا، أم لم يبلغها؟

فإذا كان رسول الله - عليه الصلاة والسلام - قد أبلغها لنا، وهو ﷺ صادق البلاغ.. تكون المناقشة قد انتهت. أما بحث جزئيات الدين لنقبل بعضه ونرفض

بعضـه.. فهذا مرفـوض تماماً.. والله ـ تبـارك وتعالى ـ يقول :

﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ(١) فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥) ﴾ [البقرة]

ولهـذا لابد أن نتنبه إلى أن قـضـايا الدين لا تناقش كجزئيات.. ليؤخذ بعضـها ويترك البعض الآخر.. ولكنها تناقش كـكـل.. والعـجـيـب أنك تجـد من يكـفـر بالله ـ والعـياذ بالله ـ يأتـى ليناقشك فى قـضـايا الدين، وهذا منطق مرفـوض، لأنك ما دمت لا تؤمن، فـماذا تناقش؟. إذا كنت لا تؤمن بالـقـمـة التى شـرّعَتْ وقـالت.. إذن : يكون نقاشك نوعـاً من العبث المرفـوض، لأنك ما دمتَ لا تؤمن فاصنع ما شئت، فليس بعد الكفر ذنب.

إن الناس فى حيـاتهم الدنيوية يطبقون منطـقاً.. فإذا جئـت إلى قضـايا الدين.. فإنهم يرفـضـون تطبـيق نفس المنطق! وعلى سـبـيل المـثال إذا مـرض الإنسـان فما

---

(١) الخزى : الهوان وافتضاح الأمر.

غايتـه؟ غاية مـهمة عـقله أن يسأل ويبحث عـن الطبيب الذى يثق فيه. فـإذا توصل بعقله إلى هذا واختار طبـيباً يمتـاز بالعلم والخبرة يذهب إليـه. حينئذ تسـتقر مهـمة العقل.

يأتى الطبيب فيكشف عليه ثم يحدد له نظام العلاج.. فـيأخـذه وينفـذه دون مناقـشـة، وإذا كان جـالسـاً مع أصـدقائه، وسـأله أحدهم: لمـاذا لا تأكل كذا؟ أو لمـاذا لا تدخن مـثـلا؟ يقـول هذه أوامـر الـطبـيب، فـيسكت الجمـيع.. لماذا؟ لأن الطبـيب فى مجـاله أكثر علـماً منه وخبـرة، وماداموا قـد وثقوا فيـه، وفى علمه وخـبرته.. ينفذون ما يقوله دون مناقشة.

والإنسان يُسلِّم قيادته إلى مَنْ هو أكثر منه علماً فى أى مجال من المجـالات، مادام قد وثق من ذلك، وأدرى الناس بالصنعـة هو صـانعهـا.. وهو يعرف ما يصلحـها وما يفسدها.

إننى مثلاً عندما يفسد عندى جهاز تليفزيون، لا ألجأ إلى نجار ليصلحه لى، ولكن ألجأ إلى صانع الشىء.. أو من تدرب على اصلاحه ليقوم بالإصلاح.

إن منطقنا فى أمـورنا الدنيوية هو أن نبـحث فى أى مجال عـمَّنْ نثق فى عمله ليقول لنا مـا نفعل من أمور. نحن لا نعلم عنـها. شـيـئـاً أو علمنا قليل لا يـمكننا من

علاج المشكلة. ولكن فى أمور الدين نجد بعض الناس يرفضون هذا المنطق. فالله سبحانه وتعالى هو الذى خلقنا. وعلمه يفوق علمنا، لأنه علم بلا نهاية.. صادر من عليم حكيم، والله يقول فى كتابه العزيز :

﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا.. ﴿٨٩﴾﴾ [الأعراف]

فإذا كنا نُسلْم زمامنا لمن هو أعلم منا من البشر، فكيف لا نسلم هذا الزمام لمن هو بكل شىء عليم - سبحانه وتعالى؟

وليعلم الكل أن الإسلام لم يصادر المناقشة ؛ لأنه يخاطب عقولاً، وإنما المناقشة إن كانت للاستفادة والإقناع فهى فرض عَيْن، وإنْ كانت للجدل العقيم والتبرير الذميم فهى نوع من العبث.

دعائم الاستقرار في المجتمع الإسلامى

ولكن بعض الناس يحاول أن يناقش الدين كجزئيات.. بدلاً من أن يتقبله عن الله ـ تبارك وتعالى ـ ويرد الله ـ جل جلاله ـ فى كتابه العزيز :

﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٦)﴾ [الحجرات]

والعجيب أنك تجد هذا الكلام يأتى من الذين يكفرون بالإسلام ولا يؤمنون به نقول لهم : أنتم لستم مكلفين بهذه الأحكام حتى تناقشوها، والله ـ سبحانه وتعالى ـ لم يكلف إلا مَنْ آمن به. ولذلك نجد آيات التكليف فى القرآن الكريم مسبوقة بقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [آل عمران]

ولنقرأ قول الله ـ تبارك وتعالى :

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) ﴾

[البقرة]

وقوله سبحانه :

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ.. (٩) ﴾ [الجمعة]

إن الذين لا يؤمنون بالله غير مُكلَّفين بشيء، وهم أكثر الناس جدلاً فيما يتعلق بأحكام الله وتكاليفه.

وإذا كان لابد أن نبدأ الحديث بهذه المقدمة.. فإننا نأتى الآن إلى تعدد الزوجات فى الإسلام.. ذلك التعدد الذى يثير جدلاً كثيراً عند الناس، وخصوصاً عند غير المسلمين.

لقد فوجئت مرة وأنا أتحدث فى سان فرانسسكو.. أن إحدى الحاضرات وقفت وقالت لى : الإسلام يبيح تعدد الزوجات؟ قلت : نعم.. يبيح للرجل أكثر من زوجة. قالت: لماذا لا يبيح تعدد الأزواج للمرأة؟ أليس عدلاً كما أباح للرجل أن تتعدد زوجاته، أن يبيح للمرأة

أن يتعدد أزواجها؟

قلت : أنتم ـ وفى دول عديدة ـ هناك أماكن تعدونها لمن أراد من الشباب غير المتزوج أن يستريح جنسياً، فيها نساء يتقاضين أجراً من أجل هذه العملية.. لماذا لا تعدون أماكن فيها شباب، وتذهب إليها النساء إذا أردْنَ الراحة الجنسية؟!.. فسكتت المرأة ولم ترد.

قلت : لأن المرأة بطبيعتها تكره تعدد الرجال، وهى ترى أن كرامتها وعزتها أن تكون زوجة لرجل واحد، وأحياناً يموت زوجها، فترفض أن تتزوج مرة أخرى، لأنها ترفض أن تعاشر رجلا آخر. ولذلك محافظة على كرامة المرأة لا تتزوج المرأة أكثر من رجل، ومحافظة أيضاً على الأنساب. التى تلعب دوراً هاماً فى حياة الناس.

والرجل هو الذى يعول ابنه حتى يصل إلى سن الرجولة، ويصبح قادرا على أن يعول نفسه، يحرم نفسه من القرش ليعطيه لهذا الابن، ويحرم نفسه من اللقمة ليضعها فى فم ابنه، ويحرم نفسه من ثوب جديد يحتاجه ليشترى لابنه ثوباً جديداً.

هذا الرجل لو شك لحظة أن هذا الطفل ليس ابنه، انقلب عليه وربما طرده من بيته.

ونحن نرى فى أحداث تقع كيف تختلف معاملة الأب

لابنه أو ابنته إذا شك فى أنهما لـيسا من صلبه.. ينقلب حبـه إلى كراهية عمـيقة، وربمـا ألقى بابنه أو ابنته إلى الشارع.

ومن هنا ـ لكى يقـوم المجتـمع ويستـمر ـ يجب أن تكون لدى الرجل كـل الضـمـانات لصـحـة نسب ابنه.. وهكذا أنت تطالبين بحق ترفضه المرأة الحرة.. وتطالبين بحق يفسد المجتمع من أساسه.

الأساس الإباحة

والآن ماذا تقول الآية الكريمة.. التى تبيح للرجل أن يتزوج بأكثر من امرأة؟

الله ـ سبحانه وتعالى ـ يقول:

﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً.. ﴿٣﴾﴾

[النساء]

وهنا نجد سؤالاً يقفز إلى الذهن.. هل الأصل فى التعدد الوجوب أم الإباحة؟

بمعنى.. هل الإسلام يوجب أن يتزوج الرجل بأكثر من زوجة؟.. أم أنه يبيح له ذلك فقط؟

طبعاً الأصل فى التشريع هو الإباحة وليس الوجوب.. أى أن الإسلام لا يوجب على الرجل أن يتزوج بأكثر من واحدة، ولكنه يبيح له ذلك، إذا رأى أن حياته محتاجة إلى ذلك. وفرق كبير بين الوجوب والإباحة.

إن الإسلام لا يفرض تعدد الزوجات.. أى لا يفرض على الرجل أن يتزوج أكثر من امرأة.. ولكنه يسمح له بذلك.

وإذا رجعنا إلى المنطق.. نجده يقول: لا تعدد لشىء على شىء إلا بفائض. فإذا دخلنا حجرة مثلا.. ونحن خمسة أشخاص ووجدنا فيها خمسة مقاعد، كل منا سيجلس على مقعد، فإذا وجدنا فيها عشرة مقاعد، جلس كل منا على مقعد، وأخذ مقعدا يستند عليه أو يريح قدميه فوقه، أو يضع يديه عليه.

إذن : لا تعدد إلا إذا كان هناك زيادة فى العدد.. والمقصود بتعدد الزوجات ألا تبقى امرأة فى المجتمع بلا زوج؛ حتى لا تحدث انحرافات وينتشر الحرام.

هذه الزوجة ـ أى الزوجة الثانية ـ لا يمكن أن تقبل مثل هذا الزوج إلا لأنها لم تجد فرصة إلا أن تكون زوجة ثانية. فإذا كان هناك فى المجتمع من يقول لها: لا تقبلى هذا الزواج.. نقول له: يسِّر لها أن تكون زوجة أولى، ولكنها اختارت أحسن الفرص بالنسبة لها، وقبلت أن تكون زوجة ثانية، إنها امرأة رأت من الخير أن تكون زوجة ثانية، أفضل من أن تبقى بلا زواج. فما تدخُّل المجتمع فى هذا؟!

نقطة ثانية بالنسبة للزوجة الأولى.. لقد رأت أنه من

الأفضل لها، أن تبقى مع زوجها عن أن يطلقها. فهل من الخير أن تبقى فى بيتها مصونة مكرمة؟ أو أن تفقد زوجها وتعيش بلا زوج!

إن التعدد فى كثير من الأحيان يكون حافظاً للزوجة الأولى وحافظاً للزوجة الثانية. فلماذا لم تشترط ساعة زواجها الا يتزوج زوجها بامرأة أخرى؟ إن من حقها أن تشترط فى عقد الزواج ما تشاء، ومع ذلك لم نسمع عن امرأة واحدة اشترطت ذلك.

إننا إذا أخذنا احصائيات الحياة.. ثم فرضنا أن عدد الإناث وعدد الذكور متساويان، فإن أحداث الحياة تأخذ من الرجال أكثر مما تأخذ من النساء. فالمعارك والحروب يتحملها الرجال.. وحياة الرجل وسعيه للرزق يجعله يتعرض لمخاطر أكثر من المرأة.

ولو تساوى عدد الرجال والنساء، ثم تعرض الرجال لمخاطر الحروب للعجز أو للموت.. فأين تذهب الباقيات؟.. ماذا يفعلن؟.. إلا إذا أردنا أن يكون المجتمع مجتمعاً منحلاً.

وإذا أخذنا كل الأجناس التى فيها تكاثر، نجد عادة أن الذكور أقل من الإناث.. إذا قمنا بتفريخ مائة بيضة، نجد أن عدد الديوك أقل بكثير من عدد الفراخ. لماذا؟..

لأن الفراخ هى التى تعطينا البيض الذى نحتاجه للإنتاج الجديد وللطعام.

وإذا غرسنـا مائة نخلة.. كم نخلة ذكـراً؟.. وكم نخلة أنثى؟.. طبعـاً عدد النخيل الأنثى أكثـر.. لماذا؟.. لأنه هو الذى يعطينا الثمر.. يعطينا البلح.. ويعطينا البذور لانتاج نخيل جديد.

وهكذا الأنثى فى كل الأنواع، هى التى تعطى، والذكر مـهمـته التـخصـيب، وذكر واحـد فى أى نوع يمكن أن يقوم بعملية التخصيب هذه بالنسبة لعدد من الإناث.

ثم يأتى سؤال هام، للذين يشكون من تعدد الزوجات فى الإسلام. هل ألزمنا الله - سبحانه وتعالى - أن نعدد زوجاتنا، وأن نتزوج أكثر من امرأة؟..

الله سبحانه لم يلزمنا بذلك.. لقد أباح سبحانه وتعالى لنا التعـدد فقط، ولنا أن نأخذ بالمبـاح أو لا نأخذ.. فلا إثم علينا إذا لم نأخذ.

والخطأ فى الضجـة الحادثة حول إباحة التـعدد ليس على النسـاء، ولكن على الرجـال. إنهم هم الذيـن قامـوا بهذه الضجة، ولـم يأخذوا مع إباحة الله للتعدد حتـميته فى العدالة، ولو أخذوا حتمـية العدالة، ولم تتأثر الزوجة الأولى فى معيشتها وحياتهـا وأولادها.. ما كانت هناك مشكلة.

إن الذى يسمع هذه الضجة.. يعتقد أن مسألة تعدد الزوجات في المجتمع الإسلامى مسألة وبائية، وأن ٨٠٪ أو ٩٠٪ من الرجال المسلمين متزوجون بأكثر من زوجة.

ولكن الاحصاءات تقول : إن المتزوجين من اثنين لا تزيد نسبتهم على ٣٪ .. أتعتبر هذه مشكلة: أن يكون بين كل مائة رجل ثلاثة فقط متزوجون بزوجة ثانية؟

هؤلاء الثلاثة ـ من كل مائة ـ ألا يمكن أن تكون عندهم مشاكل أدت إلى الزوجة الثانية.. مثلا، رجل زوجته مريضة.. هل من الأفضل له أن يتزوج امرأة ثانية أو أن يزنى مع أى امرأة؟

والزوجة المريضة.. هل من الأفضل لها أن يتركها زوجها تماماً وقد لا يكون لها أحد يرعاها.. أم يبقى ليرعاها ويقوم على شئونها؟!

الاحصاءات تقول: إن الذين يتزوجون ثلاث زوجات هم رجل واحد بين كل ألف رجل، وأن الذى يتزوج أربع زوجات، هو رجل واحد بين كل خمسة آلاف رجل. فهل تعتبر هذه مشكلة ـ مع هذا العدد بالغ القلة ـ تواجهها المجتمعات الإسلامية؟!

وهل تستحق هذه الضجة بما يصاحبها من تهويل، وتصوير أن كل رجل مسلم متزوج من أربع زوجات..

وهو تصوير خاطئ وكاذب عن عمد وافتراء.. هدفه تصوير المجتمع الإسلامي على غير حقيقته.

لقد دخلت البشرية تجربتها مع الزواج الأبدى أو الكاثوليكى الذى لا طلاق فيه.. تجربة خاضها البشر.. ووضعوا فيها مقاييسهم وأحكامهم، فهل نجحت؟.. أم أن الكنيسة الكاثوليكية التى كان يملؤها التعصب لمبدئها، وتفاخر به بين الناس هى التى اضطرت لا عن إيمان ولا عن دين، ولكن عن واقع دنيوى، ومشاكل ملأت المجتمع بلا حلول.

لقد اضطرت أن تبيح الطلاق، لأنها وجدت فى واقع تجربة الحياة المريرة التى نشأت فى ظل هذا النظام، أن المجتمع لا يمكن أن يستقيم، وأن المشاكل قد ملأته وفاض بها، وأنه لا يوجد طريق أمامها باستمرار هذه الأبدية، ولهذا أباحت الطلاق، وعندما أباحته لم تُبِحْه اعترافاً بالإسلام، ولا أخذاً بتعاليمه وأحكامه ومبادئه.. ولكن من واقع قانون التجربة والخطأ.

نظرة الإسلام إلى التعدد

الأسرة قد تتعرض لمشكلات تهدد كيانها وتعرضها للدمار والفساد، وهذه المشكلات لا يمكن علاجها إلا من طريق إباحة التعدد منها:

١ ـ زيادة عدد الإناث عن عدد الذكور.

٢ ـ قوة الدوافع الجنسية عند الرجال، وبرودته عند بعض النساء.

٣ ـ مرض الزوجة بمرض مزمن أو إصابتها بعقم.

٤ ـ نقص عدد الرجال بسبب الحروب.

لهذا جاءت شريعة الإسلام لتحول بين وقوع الإنسان فى الحرج، فأباحت له الزواج بأخرى، حتى لا يقع فريسة للصراع النفسى، الذى قد يقوده إلى السقوط والوقوع فى الحرام.

لهذا يقول الحق :

﴿ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً . . (٣) ﴾

[النساء]

فالعدل المطلوب هو العدل فيما يملكه الإنسان من الحقوق والواجبات، وهو أمر فى استطاعة البشر، والقرآن الكريم هو الذى عقّب على قضية العدل المراد بالنصيحة للإنسانية بعد أن ذكر أنهم لن يستطيعوا العدل ولو حرصوا. فأبان أن العدل المطلوب هو عدم الميل المتعمد، فقال تعالى :

﴿ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ [1] .. (١٢٩) ﴾ [النساء]

أما العدل القلبى فلا يملكه أحد؛ لذلك اشترط الإسلام لإباحة التعدد عدم الخوف من الظلم فيه، فكان الناس قديماً يعددون بلا حدود ولا ضوابط، مما جعل الضرر والحيْف[2] على المرأة أشد، فجعل للتعدد أحكاماً وآداباً ومبررات وأخلاقاً حفاظاً على كرامة المرأة، وحُسْن رعايتها وسلامة الأسرة من الانحدار فى الهاوية .

ولكن دعاة التحلل تنقصهم أمانة العرض لجهلهم بحقائق الأشياء، ولو قرأوا الحقيقة من مصادرها الأصلية: القرآن والسنة وتعايشوا معهما لعلموا أن

---

(١) المعلقة: المربوطة من أعلى لا تستطيع الحركة، وهى هنا المرأة التي يمسكها زوجها، فلا يُطلِّقها ولا يعاشرها معاشرة الأزواج [القاموس القويم ٢/٣٢].

(٢) الحيف : الميل فى الحكم والجور فيه. حاف يحيف: جار وظلم. قال تعالى : ﴿ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ .. (٥٠) ﴾ [النور]

الإسلام كـرَّم المرأة تكريمـاً لم تَرَهُ فى ماضى الـتاريخ وحاضره.

هؤلاء المـتحللون الهـدَّامـون لأمتنا الذين يسـتمـدون أفكاراً مستوردة.

لو اطّلعوا على مُجْريات الأحداث التـاريخية لَعرفوا أن القـيم الإسلامـية وضـعت كل إنســان فى مكانه اللائق، فالمرأة فى ألمانيا عقب الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥م) طالبتْ بتـعدد الزوجات، وفى أعـقاب المـؤتمر الذى انعـقد بألمـانيـا سنة ١٩٤٨ أوصى بإباحة تعـدد الزوجات بألمانيا لمشكلة تكاثر النسـاء.

ومن العجيب أن فوضى غيرنا فضيلة ، وفسق غيرنا شـرف، والإباحـيـة حريـة ، هذا أمر عـجـيب، وليـقـرأ المتحللون ما كتبته كاتبة إنجليزية.

قالت : « لقد كثـرتْ الشاردات فى بناتنا، وعَمَّ البلاء وإنى كـامـرأة، أنظر إليـهن وقلبى ينفطر حـسـرة، وإن الدواء الشــافى لذلك: أن يباح لـلرجل الزواج بأكثـر من واحـدة، فبـذلك تصـبح بناتنا ربات بـيوت، وإن إرغـام الرجل على الاكتفاء بواحـدة جعل بناتنا شوارد، وسوف يتـفاقـم الشر إن لم يُبـح تعدد الزوجـات» عن جـريدة «لندن تربيون» فى ١٩٤٩/٨/١٠ فهل من مُدَّكر ؟

موقف الكنيسة من الطلاق

وهكذا أباحت الكنـيسـة الكاثولـيكيـة للرجل أن يطلق زوجتـه وأن يتزوج بأخرى، ولو كـانت الكنيسـة أخذت رأى المرأة لفضلت الكثيـرات أن يبقين مع أزواجهن مع السماح للزوج بأن يتزوج بأخرى.

ولكن التـعـصب هنـا لمـبـدأ باطل، وهو الذى جـعل الكنيسة لا تُجرى مثل هذا الاستفتاء بين النساء.

إن المسـألة ليست مظـهرية، ولكنهـا قوانين لصـيانة المجتمع.. قوانين وضعـها الله - سبحانه وتعالى - وهو الخالق العليم بخلقه، ولتستـقيم الأمور بلا مجاملة، وبلا مبـاهاة، ولكن بالحق والعـدل.. وليصـون كرامـة المرأة ويكفل لهـا كرامـتـهـا، ولتـصـبح كل امـرأة لهـا رجل يرعاها.

إنها حل لكل مشكلة.. وهو كما نرى لم يُقْدِمْ عليه إلا أقل القليل.. رجـل أو رجـلان هم الذين اتخـذوا زوجـة ثانية.. والله أعلم بالظروف التى دفعـتهم إلى ذلك، وماذا كان يمكن أن يحدث لو لم يتخذوا هذا الطريق؟

بقيت بعد ذلك مشكلة أولئك الذين قالوا : إن الله ـ جل جلاله ـ لم يُبِحْ التعدد فى الزوجات.. مستندين إلى الآيات الكريمة فى كتاب الله العزيز:

﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ .. (٣) ﴾ [النساء]

وقوله جل جلاله :

﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلاَ تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً(١٢٩) ﴾

[النساء]

بعض المفسرين.. خصوصاً المفسرين من الشيعة قالوا: إن معنى هاتين الآيتين« إن الإسلام لا يقر التعدد» لماذا؟.. لأنه اشترط فى التعدد العدل بين الزوجتين.. ثم قال الله ـ جل جلاله : ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ. .(١٢٩) ﴾ [النساء]

فهذا نفى أن الزوج يستطيع العدل وبذلك امتنع التعدد.. نقول لهؤلاء: إنكم لم تفهموا النص.. لأن الآية

الكريمـة تقول : ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ.. (١٢٩) ﴾ [النساء]

الحكم هنا بالتـعدد باق ولم يبطل، ولكن هـناك عدم فهـم ممَّن فســروه لأن العدل إمـا أن يكون عدلاً مـادياً، فقد يتحـقق فيه العدل، أما العدل القلبى فـهذا أمر موكل لنيـة صاحـبه، ومع هذا أمـرنا المولى بأن لا نمـيل كل الميل.

معنى ولن تعدلوا

لو أن المقصود كان إبطال الحكم.. لكانت الآية الكريمة قد وقفت عند قوله تعالى : ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا﴾.. وتكون المسألة حكماً مطلقاً من الله جل جلاله.. ولكن قوله سبحانه : ﴿وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلاَ تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ﴾.. يلفتنا إلى أن حكم التعدد مازال باقياً، ولو كان حكم التعدد قد أبطل لما قال الحق تبارك وتعالى : ﴿وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾.. لأنه كيف يكون الحرص والعدل مستحيلاً؟ وكيف نحرص على تنفيذ حكم أبطله الله سبحانه وتعالى؟!

إذن: فمسألة الحرص فى العدل دلَّتْ على أن الحكم باق، وأن الله جل جلاله يوصينا بالحرص فى التنفيذ.. وبمراعاة العدل بقدر إمكان البشر.

وقول الحق ـ تبارك وتعالى : ﴿ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلاَ تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ﴾.. يلفتنا إلى أن الله يوصينا ألا نميل نحو واحدة ونترك الأخرى كالمعلقة، التى ليس لها زوج، وكيف نميل نحو واحدة ونترك الأخرى كالمعلقة، إلا إذا كان مباحاً لنا أن نتزوج أكثر من امرأة.

إن كل من أفتي بأن معني قول الله - سبحانه وتعالى - ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ (١٢٩).. [النساء] هو منع التعدد فى الإسلام، أو منع الزواج بأكثر من واحدة.. نقول له : إن هذا الفهم خاطيء.

ويجب علينا أن نعيش فى ظلال القرآن الكريم، تحت راية من نزل عليه القرآن، وعمل به وأبلغه وبيَّنه.. وهو رسول الله ﷺ فلا يوجد بيننا إنسان - مهما علا قدره - يستطيع أن يدعى أنه يفهم القرآن أكثر ولا أعمق من رسول الله ﷺ لأنه عليه نزل.. وهو أكثرنا فهماً للقرآن، وكان منهجه محروساً برعاية الله.. والله جل جلاله يقول فى رسوله الكريم :

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ[1] وَمَا غَوَىٰ[2] (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ[3] الْقُوَىٰ (٥) ﴾

[النجم]

(١) صاحبكم : هو محمد ﷺ .
(٢) ما غوى : ما اعتقد باطلاً قط.
(٣) شديد القوى : هو أمين الوحى جبريل عليه السلام.

إن رســول الله ﷺ لا ينطق عن هوى فى نفســه.. إذا جاءه الحق من الله ـ سبحــانه وتعالى ـ بل له ﷺ أمانة البلاغ وأمانة التنفيذ.. مصداقا لقوله تبارك وتعالى :

﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَـــا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَـــافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥)﴾ [يونس]

ولو أنه كان مـعنى : ﴿وَلَن تَسْتَطِيـعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ..(١٢٩)﴾ [النسـاء].. هو تحريم الزواج بأكثر من واحدة.. لكان رسول الله ﷺ هو أول من طلق زوجـاته وأبقى واحـدة.. ولكن لأن مـعنى الآية الكريمـة ليس تحريم الزواج بـأكثر من واحـدة، بل الحرص على العدل. فقد أبقى رسول الله ﷺ زوجاته.

ولا يوجد من يستطيع أن يـدعى ـ كما أسلفت ـ أنه أفهم بنصوص القرآن الكريم ومعانيه من رسول الله ﷺ ولا نقبل مثل هذا الادعاء.

والله ـ سبحانه وتعالى ـ حين لفتنا إلى مسألة العدل بين النســاء.. يجب ألا نفهم أنه جل جلاله يـريد العدالة المطلقة.. لأن العدل المطلق هو لله سـبحانه وحده، ولكن الله يريد العدالة الإمكانية.

معنى العدالة

مأهى العدالة الامكانية؟

عدالة فى الزمن الذى يقضيه الزوج عند كل واحدة.. عدالة فى المعيشة، فلا يسرف هنا ويقتر هناك، لا.. ولكن العدالة فى الحب لا يكلف بها الإنسان. لماذا؟ لأنها فوق الطاقة، ولكن كل امرأة وما تستطيع أن تُرغِّب فيها زوجها.. المهم أنه يعطيها ليلتها، ويعطيها العدل فى الوقت والإنفاق.

قالت السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ كان رسول الله ﷺ يقسم فيعدل، ويقول : «اللهم هذا قسمى فيما أملك.. فلا تَلُمْنى فيما تملك ولا أملك»[1] يعنى القلب.

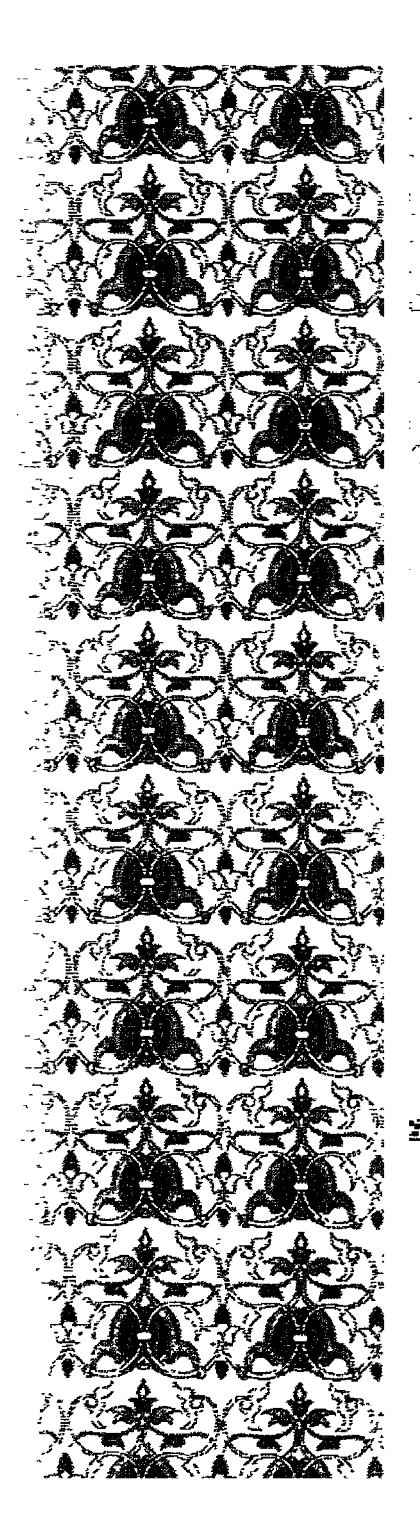
إن تعدد الزوجات أمر لم يلزمنا الله ـ سبحانه وتعالى ـ به، ولكنه أباحه لنا.. وفرق كبير بين الإباحة والإلزام.. وأنه ضرورة اجتماعية حتى لا ينتشر الانحلال، وأنه إن تم يشترط فيه العدل فى النفقة والمعيشة والوقت، وأن كل النظم التى قاومت حرية

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٦/ ١٤٤) والدارمى فى سننه (٢/ ١٤٤)، وابن ماجه (١٩٧١) من حديث عائشة رضى الله عنها.

الرجل فى أن يتزوج امرأة أخرى.. سواء طلق زوجته أو أبقاها قد فشلت.. وأن الله سبحانه وتعالى ـ حينما أباح التعدد.. إنما أعطانا النظام الذى لا ضرر منه، وأنه رغم هذه الإباحة فإن عدد الذين يتزوجون بزوجة ثانية لا يزيد على ثلاثة رجال فى كل مائة رجل، وأن المتزوجين من أربع نساء لا يزيدون على رجل واحد فى كل خمسة آلاف رجل.

إن هذه المشكلة ـ من حيث الواقع ـ تكاد تكون معدومة، ولكن الذين فى قلوبهم مرض يُضخِّمونها للنيل من الإسلام، وإظهاره على غير حقيقته.



الفصل الثالث

ملْك اليمين..
إطلاق وتكريم

يقـول تعـالى :﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُـرُوجِـهِمْ حَـافِظُونَ ۝ إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِـهِمْ أَوْ مَـا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝ ﴾ [المؤمنون]

ويقول الحق :

﴿ فَـانكِـحُـوا مَـا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَـاءِ مَـثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِـفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَـوَاحِـدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ .. ۝ ﴾ [النساء]

ولقـد حاول الكثـيرون أن يقـولوا : ما مـعنى : ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ..۝﴾[النساء] الآن.. وهـل يوجد من تنطبق عليه هذه الآية؟

نقول : إن هذه الآية تنطبق الآن على أسيرات الحرب من النـسـاء.. لكـن هذه الحـرب لابد أن تكون حـربـاً شرعـية.. أى أعلنهـا الوالى أو الحاكم، ولا تكون مـجرد غزوات أو مناوشات بين طوائف من الناس، مثلما يحدث فى لبنان الآن من وجود طوائف متنازعة.. يقاتل بعضـها البـعض.. أى التى يقـولون عنهـا الحـروب الأهليـة.. أو

الحروب الطائفية.. ولنا أن نتصور ما يمكن أن يحدث لامرأة سقطت أسيرة بين جيش من الغزاة.

لقد رأينا أفلاماً تصور ما يحدث للأسيرات إذا وقعن فى أيدى القوات الغازية.. مثلما حدث فى معارك الحرب العالمية الثانية وفى فيتنام، وماذا كان يحدث من اغتصاب النساء فى دور العبادة، والوحشية التى كانت تتم بها هذه العملية.. وإن كانت هذه الأفلام قد استندت إلى الواقع والحقيقة.. فإنها خففت منه كثيرا، لأنها لا تستطيع أن تعرضه ببشاعته، ولأن حقيقة ما يقع تفوقه أكثر الخيالات الشريرة.. بشاعة وجُرْماً.

أراد الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يقى المرأة من هذا كله وهو يقع. ومازال يقع، وسيظل يقع فى الحروب القادمة، إن كانت مشيئة الله تقضى بأن حروباً ستتم. أراد الله برحمته أن يقى المرأة من هذه الوحشية الرهيبة؛ فأباح لأى رجل أن يتزوجها. دون التقيد بشىء فى العدد أو غير ذلك.. أى أن تكون زوجة زائدة.. ومتى تزوجها أصبحت لها حرمة، وأصبح لها من يحميها ويدافع عنها، واحترم الجميع هذا الزواج.. فهل فى هذا إهانة للمرأة أم تكريم لها؟

وهل إذا وقعت امرأة أسيرة بين مجموعة من الجنود.. وخُيِّرت بين أن يفتكوا بها أو تتزوج أحدهم؟

فأىُّ العـرضين تختار؟.. بلا تـردد طبعاً تختـار العرض الثانى، أى أن تكون زوجـة ولها كيان.. وليســت فريسة يُفْتَكُ بها ثم تُلْقى فى الطريق.

والمتـفقه فى أسرار دينه يعلم أن ملْك اليـمين إطلاق من العـبـودية إلـى مـرتبـة الحـرية؛ لَأن الإســلام أراد التخلص من الرق فجعل عتق الرقبة من القربات إلى الله.

ومِلْك اليمين انتقال من المملوكية إلى الحرية.

وكل الآيات التى وردت فى الرق فى الإســلام جاءت لتخـلص الإنسانيـة من رصيدها الـسيىء فى العـبودية، وإطلاق سراح العبيـد ليكونوا أحراراً، وفى هذه إشارات إلى تكريم الإنسان ولا سيما المرأة.

نصوص لها حق البقاء

إذا كانت لا توجـد الآن من تنطبق عليهـا معنى الآية الكريمة :﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ..(٣) ﴾[النسـاء].. فليس معنى هذا إضـعاف للنص، فـالنص الشرعى مـوجود إن وجـدت حالة طُبِّقَ عليـها، وإن لم توجـد فهـو موجـود للتطبيق متى وُجدتْ الحالة.

فلنفرض أن مدينة ليس بهـا لص واحد.. هل يتساءل أهلها: لماذا تم تشـريع قطع يد السارق مع أنه لا يوجد من يسرق فى هذه البلدة؟

لا ، فالنصُّ باق، حتى إذا سـرق أحد طبق عليه، وإن لم يسرق أحد الآنَ، فالتشـريع موجود ليطبق إذا حدثت جريمة السرقة فى المستقبل..

وليس القصد من التشـريع هو وقوع الجريمة.. ولكن القصد منه هو منع وقوعهـا. فإذا قلنا: إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد قـضى بقطع يد السارق أو السارقـة.. كما جاء فى كتابه العزيز :

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا

كَسَبَا نَكَالاً[1] مِّنَ اللَّهِ واللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(٣٨) ﴾

[المائدة]

فليس معنى هذا التحريض على السرقة.. ولا التنكيل بالناس.. ولكن هدفه هو منع جريمة السرقة من الوقوع. لأن السارق إذا ما استحضر العقاب وعرف أن يده ستقطع؛ سيمتنع عن ارتكاب هذه الجريمة، كذلك القاتل إذا عرف أنه سيقتل؛ فإنه سيمتنع عن القتل، لأنه يعلم أنه سيدفع حياته ثمناً لذلك.

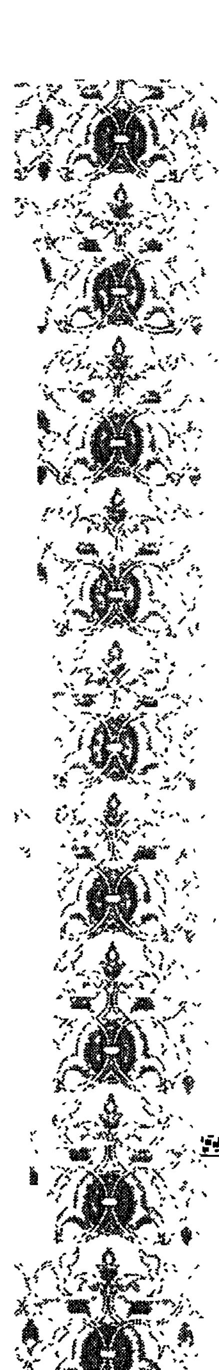
إن الدول التى أوقفت جريمة الإعدام بالنسبة للقاتل واستبدلتها بالسجن مدى الحياة.. انتشرت فيها جرائم القتل، وتعالت فيها الأصوات مطالبة بالعودة إلى عقوبة الإعدام.. كردع لجرائم القتل.

إذن: فقول الحق ـ سبحانه وتعالى : ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ..(٣) ﴾[النساء] هو تكريم للمرأة.. سواء وقعت أسيرة فى الحرب، أو كانت جارية كما كان يحدث فى الماضى عندما كان الرق موجوداً.. لتحرر ويصبح ابنها حراً، وتصبح زوجة لسيدها.

وهكذا عالج الإسلام أمراض المجتمع التى كانت موجودة حين نزل القرآن، والتى قد تحدث بعد ذلك علاجاً يحفظ للمرأة كرامتها وحريتها وعزتها وسيادتها.

---

(١) نكالاً : عقوبة تمنع من العَوْد ، وتكون عبرة للآخرين.



الفصل الرابع

العاطفة
بين العقل والدين

العقل والدين

إننا عندما نتدبر ما جاء فى حديث شريف لرسول الله ﷺ : « ما رأيتُ من ناقصات عقل ودين أغلبَ لذى لُبٍّ منكن»[1].. نجد أن البعض أخذ هذا الحديث على أنه إهانة للمرأة وَحَطٌّ من كرامتها، ومنزلتها فى المجتمع، وأنه اتهام لها بنقص العقل والدين.

لكن الحقيقة غير ذلك تماماً.. لأن هذا الحديث يشرح لنا طبيعة المرأة من ناحية التكوين. فالمرأة بطبيعة تكوينها تغلب عليها العاطفة، وهذا ليس عيباً، ولكنه ميزة تناسب مهمتها فى الحياة، لأنه مفروض بطبيعتها أن تعطى من الحنان أكثر، ومن التفكير العقلى أقل.

إنها هى التى تحنو، وهى التى تمسح الدموع، وتضع مكانها الابتسامة، وهى التى تمسح تعب اليوم وشقاءه عن زوجها وأولادها، ولا يتم هذا بالعقل، ولكنه يتم بالعاطفة.

إن هذا لا يعنى طعناً فى فكر المرأة وذكائها.. وإن

---

(١) تمام الحديث: «أما نقصان العقل فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل فهذا نقصان العقل، وتمكث الليالى ما تصلى وتفطر فى رمضان فهذا نقصان الدين» أخرجه مسلم فى صحيحه(٧٩)والبخارى فى صحيحه (١٤٦٢)عن أبى سعيد الخدرى.

كان يعنى كشفاً عن طبيعتها. ويهمنى أن ألقى ضوءا على حدث هام كان للمرأة دور كبير فى حَسْمه مما يدل على رجاحة العقل وحسن التصرف.. ذلك الحدث هو صلح الحديبية.. ذلك الصلح الذى كان انتصارا للدعوة الإسلامية.. وبداية لنشرها فى كل أنحاء الجزيرة العربية.

فما هى هذه الأحداث التى سبقت هذا الصلح؟

كان المسلمون قد أحرموا واتجهوا إلى بيت الله الحرام لأداء العمرة، ومعهم الهدى الذى سيذبحونه عند الانتهاء من العمرة والطواف ببيت الله الحرام، وتصدى لهم الكفار، ومنعوهم من دخول مكة ومن الطواف بالبيت الحرام.

وانتهى هذا التصدى بتوقيع صلح الحديبية بين رسول الله ﷺ وكفار مكة، وفيه تعهد الكفار.. بألا يتعرضوا للمسلمين ولا لحلفائهم.. ولا لنشر الدعوة الإسلامية.. ولا يتعرض المسلمون لحلفاء قريش ومن كان فى حمايتها.. وكان هذا أول تعهد من كفار مكة ألا يتعرضوا للمسلمين.

إن الدعوة الإسلامية كانت محتاجة إلى حرية الرأى، وحرية الكلمة، وعدم التعرض لدعاة المسلمين بالقتل والتعذيب.. أما نشر الدين واعتناق الإسلام.. فإن الإسلام يملك من الأدلة ومن الهدى، ومن المنطق والحجة، ما يجعل كل من استمع إلى تعاليمه يعتنقه.

أم سلمة

حينما تم توقيع صلح الحديبية.. أمر رسول الله ﷺ المسلمين. بأن يذبحوا الهدى، ويحلوا إحرامهم، ولكن الحمية الدينية فى داخلهم، والصلح الذى منعهم من الطواف ببيت الله الحرام.. أشعلت ثورة فى صدورهم.. منعتهم أن يروا الحكمة فى توقيع هذا الصلح.. وكيف أن الله سبحانه وتعالى جعل فى هذا الصلح إشارة لانتصار الإسلام وفتح مكة.

لقد غابت عنهم الحكمة فى أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ منعهم من القتال.. لأن فى مكة مسلمين يكتمون إسلامهم، ويبقون إيمانهم فى صدورهم، وأنه لو حدث قتال فى هذا الوقت لقتل المسلمون بعضهم بعضاً وهم لا يعلمون.. وفى ذلك يقول الحق ـ سبحانه وتعالى :

﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ[1] مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا

---

(١) الهدى : ما يهديه الحاجُّ من الأنعام لفقراء البيت الحرام. معكوفاً: محبوساً ومخصصاً لفقراء البيت الحرام.

رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ[1] فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ[2] بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا[3] لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥) ﴾ [الفتح]

وهكذا بيَّن الله سبحانه وتعالى للمسلمين.. الحكمة فى أنه منعهم من القتال يوم صلح الحديبية، لأن هناك رجالاً مؤمنين ونساء مؤمنات فى مكة يكتمون إيمانهم..

وقوله تعالى : ﴿ لَوْ تَزَيَّلُوا ﴾.. أى لو كانوا معروفين ويجمعهم مكان واحد بحيث يكونون مميزين عن الكفار..

وقول الحق ـ تبارك وتعالى : ﴿أن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ .. أى تقتلونهم وأنتم لا تعلمون أنهم مؤمنون ، وقوله سبحانه : ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ﴾.. أى تشعرون بالعار والخزى.. لأنكم قتلتم مؤمنين.. ولذلك كانت الحكمة من عدم الإذن بالقتال يوم صلح الحديبية.

ثم يبين لنا القرآن الكريم كيف أن الله جل جلاله هو

---

(١) تطئوهم : تهلكوهم مع الكفار.
(٢) معرة : مضرة أو إثم أو سبة.
(٣) لو تزيلوا : لو تميز المؤمنون عن الكفار فى مكة.

الذى أنزل السكينة على رسوله وعلى المؤمنين حتى لا يقاتلوا.. فيقول سبحانه :

﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ[1] حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ[2] التَّقْوَىٰ.. (٢٦) ﴾ [الفتح]

نقول : إن رسول الله ﷺ أمر المؤمنين بأن يذبحوا الهدى، ويحلوا إحرامهم، ولكن أحداً منهم لم يفعل ذلك، فدخل الرسول - عليه الصلاة والسلام - على زوجته أم سلمة بنت أبى أمية وهو شديد الغضب، فقالت : مالك يارسول الله؟ فلم يرد.. فكررتها عدة مرات.. حتى قال - ﷺ : «هلك المسلمون، أمرتهم بأن ينحروا ويحلقوا فلم يفعلوا» فقالت أم سلمة: « يا رسول الله لا تلمهم فإن داخلهم أمراً عظيماً مما أدخلت على نفسك من المشقة فى أمر الصلح ورجوعهم بغير فتح، يا نبى الله أخرج ولا تكلم أحدا منهم، وانحر هديك واحلق رأسك ففعل رسول الله ﷺ ذلك، وقام

(١) الحمية : الأنفة والغضب الشديد، وهى أنفة طيش وغرور فى منع المسلمين من دخول المسجد الحرام عام الحديبية.

(٢) أمرهم بكلمة التوحيد ووفّقهم إليها.

المسلمون فنحروا وحلقوا(١).

وهكذا نرى أن رسـول الله ﷺ أخـذ برأى زوجتـه « أم سلمة» في أمر من أشق الأمـور وأشدها.. ولو كان عقلهـا ناقصـاً.. نقص "ذكاء أو نقص استـيعـاب ما نزل رسول الله ﷺ على رأيها. ولكن نقص العقل فى الحديث الشريف معناه: أنها تفعل أشياء يقف العقل عندها، وإنما تفعلها بالعاطفة.

ولكى نفـهم معنى الحـديث الشريف، لابد أن نـعرف ما هو العقل؟ ليفهم الناس من التسـمية مهمة العقل. إن العـقل مـأخـوذ من العـقـال، وهو مـقـود الجـمل الذى لا يجعله يسـير على غيـر هدى، إنما يخضـعه لمشيـئة راكبـه.

الجـمل لو ترك على هواه بغـيـر عقـال.. لجـرى هنا وهناك، وكلما رأى عشـباً مثلا انطلق إليه.. يسـير يميناً ويساراً.. ولا يصـل أبدا إلى المكان الذى يريد صاحـبه أن يصل إليه، ولكن مهمة العقال أن يحكم حركة الجمل، بحـيث يسـيـر فى الطريق المـرسـوم الذى يوصله إلى الغايـة المطلوبة، فإذا انحـرف يميناً أو يسـاراً استـخدم راكبـه العقـال ليجـعله يسيـر فى الطريق السليم. وهذه

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/٣٢٦) ضـمن حديث طويل فى صلح الحديبية من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم.

مهمة العقل.. مهمته أن يكبح شهوات النفس، ويجعلها تسير فى الطريق المرسوم.

أما الرجل فحياته عقلانية أكثر من المرأة، لأن مهمته هى السعى على الرزق، فلابد أن يرتب الأشياء ترتيباً عقلياً لا مكان فيه للعاطفة.. فإذا لم يكن معه إلا بضعة جنيهات حتى آخر الشهر، وجاء ابنه أو ابنته، وطلبا منه شيئاً فإنه لا يعطيهما.. فإذا ألحا فى الطلب انفعل عليهما، لماذا؟ لأنه حكم عقله بما هو مطلوب منه، وأخذ الطريق الذى لا عاطفة فيه.

لنفرض أن الابن أو الابنة ذهب إلى الأم وطلب نفس المطالب، ونزلت دموعه، ماذا يحدث؟. إذا لم يكن معها مال تقترض.. تذهب إلى الجارات لتشترك فى جمعية.. تتحايل بشكل أو بآخر.. حتى تأتى لابنها أو لابنتها بما طلبوا.

المهم أنها عندما تفكر بعقلها تغلب عليها العواطف.. بل قد تندفع بعاطفتها لإرضاء أولادها.. حتى أنها قد تقترض، وهى لا تعرف من أين سترد القرض؟ أو من أين تدفع أقساط الجمعية؟ والمهم فى هذا كله أن تفكيرها.. يكون خاضعاً دائماً للعاطفة وليس للعقل، بحيث لا ترتب الأحداث ترتيباً عقلياً.

إننا نرى الأولاد إذا احتاجوا شيئاً، وعلموا أن أباهم

لن يوافق لأى سبب من الأسباب.. أسرعوا إلى الأم هى التى تأتى لهم بالموافقة.. وهى بعاطفتها تؤثر على الأب.

وإذا أردنا أن نأخذ مثلاً آخر.. لنفرض أن الأب عاد إلى بيته متعباً، يريد أن ينام ويستريح، وإذا بطفله الرضيع يبكى، أول شىء يفعله الأب هو أن يبحث عن مصلحته كما يدله عليها عقله.. إنه يريد أن ينام، ولديه عمل فى الغد فيذهب إلى حجرة أخرى لينام.

ورغم أن هذا هو التصرف الفعلى السليم، فإن الأم لا تفعله أبدا مهما كانت متعبة أو مجهدة، فإنها تبقى ساهرة بجوار ابنها.. بل إنها لو كانت مرتبطة بموعد هام، وهى فى طريقها إلى الباب ووجدت درجة حرارة ابنها ارتفعت ارتفاعاً كبيراً فجأة.. نجد أن الأب يذهب إلى الموعد حتى ولو كان هو يقوم مقام الأب والأم، فى حالة وفاة زوجته، ولكن الأم مستحيل أن تفعل ذلك.

وتستطيع أن تقيس على هذا مئات الأحداث التى تقع كل يوم، وتقارن فيها بين موقف الرجل والمرأة، لتجد أن عاطفة المرأة أقوى من عقلها.

لماذا؟ لأن هذه مهمتها فى الحياة، ولو لم تكن العاطفة أقوى من العقل فى المرأة، لما سهرت الليالى بلا نوم بجوار ابنها المريض، ولما عاشت وتحمّلت

لتبقى مع زوجها وأولادها فى الأزمات، ولما استطاعت أن تتحمل مشقة التربية وصعابها.

إن تضحية الأم من أجل أولادها، شيء لا يمكن إذا حكمنا فيه العقل أن يحدث، ولكن العاطفة وجدت هنا لتؤدى المرأة مهمتها، ولذلك عندما سأل أحد الرجال رسول الله ﷺ : « من أحق الناس بحسن صَحابتى؟ قال الرسول ـ عليه الصلاة والسلام : أمك.. فقال الرجل: ثم من؟.. فقال الرسول : ثم أمك.. فقال الرجل: ثم من يا رسول الله؟ قال ﷺ : ثم أمك.. وسأله الرجل: ثم من؟ قال: ثم أبوك..»(1)

وقال ﷺ : «الجنة تحت أقدام الأمهات»(2).

---

(1) حديث متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٩٧١) ومسلم فى صحيحه (٢٥٤٨) كتاب البر والصلة من حديث أبى هريرة.

(2) ذكره العجلونى فى كشف الخفاء (١٠٧٨) وعزاه للخطيب فى جامعه والقضاعى فى مسنده عن أنس بن مالك. وفيه مَنْ لا يُعرف.

أم علقمة

مرض أحد شباب الصحابة واسمه علقمة.. اشتد مرضه وأرسلت زوجته إلى رسول الله ﷺ أن زوجى علقمة يعانى سكرات الموت. فأرسل رسول الله - عليه الصلاة والسلام - عماراً وبلالاً وصهيبا. وقال لهم: لقنوه الشهادة.. فجاءوا إليه فوجدوه فى النزع الأخير، فجعلوا يلقنونه الشهادة فلا يستطيع النطق بها. فعادوا إلى النبى ﷺ يخبرونه بذلك.. فقال الرسول - عليه الصلاة والسلام : هل من أبويه أحد حى؟ قيل : يا رسول الله له أم كبيرة السن، فأرسل إليها رسول الله - عليه الصلاة والسلام - من يقول لها: إن قدرت على المسير إلى رسول الله ﷺ فاذهبى إليه، وإلا فانتظريه فى المنزل حتى يأتيك، فقالت المرأة: نفسى لنفسه الفداء.. أنا أحق بإتيانه.

ثم قامت فتوكأت على عصا وأتت رسول الله ﷺ وسلمت فردَّ عليها السلام وقال لها الرسول ﷺ : يا أم علقمة أصدقينى القول.. وإن كذبتنى جاء الوحى من الله بالحقيقة.. كيف كان حال ولدك علقمة ؟ قالت :

يا رسول الله كان كثير الصلاة.. كثير الصيام.. كثير الصدقة.. قال رسول الله ﷺ : فما حالك معه؟ قالت: يا رسول الله أنا عليه ساخطة.. قال: ولمَ؟ قالت : يا رسول الله كان يؤثر زوجته عليّ.. فقال رسول الله - ﷺ : إن سخط أم علقمة على ولدها حجب لسان علقمة عن الشهادة.

ثم قال رسول الله ﷺ : يا بلال انطلق واجمع لى حطباً كثيراً.. فقالت أم علقمة: وما تصنع به يا رسول الله؟ قال: سنحرق ابنك فى النار. فقالت أم علقمة: يا رسول الله إنه ولدى، ولا يحتمل قلبى أن يحرق بالنار، فقال رسول الله - عليه الصلاة والسلام : يا أم علقمة عذاب الله أشد وأبقى، ونار الدنيا أهون من نار الآخرة. إن أردت أن يغفر الله له فارضَىْ عنه، فوالذى نفسى بيده لا ينتفع علقمة بصلاته ولا بصيامه ولا بصدقته مادمت عليه ساخطة. قالت: يا رسول الله فإنى أشهد الله تعالى وملائكته ومن حضرنى من المسلمين أنى قد رضيت عن ولدى علقمة. فقال رسول الله ﷺ : انطلق إليه يا بلال، فانظر هل يستطيع أن ينطق بشهادة لا إله إلا الله أم لا، فلعل أم علقمة تكلمت بما ليس فى قلبها حياء منى.

وانطلق بلال فسمع علقمة.. وهو ينطق بالشهادة. ومات علقمة فى يومه، فحضره رسول الله ﷺ وحضر

دفنه وصلى عليه.. ثم قام على قبره وقال : يا معشر المهاجرين والأنصار.. من فضّل زوجته على أمه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً إلا أن يتوب إلى الله عز وجل، ويحسن إليها ويطلب رضاها. فرضى الله عز وجل فى رضاها، وسخط الله عز وجل فى سخطها.

وصعد رسول الله ﷺ المنبر.. فلما رقى درجة قال: آمين.. ثم رقى أخرى فقال: آمين .ثم رقى درجة ثالثة فقال: آمين.. ثم قال :

«أتانى جبريل ـ عليه السلام ـ فقال: يا محمد تعس من أدرك رمضان ولم يغفر له.. قل: آمين. فقلت: آمين. قال جبريل: تعس من أدرك والده عند الكبر ولم يدخل بهما الجنة قل :آمين. فقلت: آمين.. قال جبريل: تعس من ذُكِرْتُ عنده فلم يُصَلِّ عليك قل: آمين. فقلت: آمين».

حوار حول المرأة

قالت أم سلمة لرسول الله ﷺ :أخبرني يا رسول الله عن قول الحق عز وجل : ﴿وَحُورٌ عِينٌ (٢٢)﴾ [الواقعة].. فقال عليه ـ الصلاة والسلام ـ «حور» معناها بيض.. و«عين».. أى ضخام . شفر الحوراء بمنزلة جناح النسر.. قالت أم سلمة: أخبرني يا رسول الله عن قوله تعالى : ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (٥٨)﴾ [الرحمن] .. فقال النبى ـ عليه الصلاة والسلام : صفاؤهن كصفاء الدر «أى: اللؤلؤ » الذى فى الأصداف الذى لا تمسه الأيدى.. وقالت أم سلمة: يا رسول الله أخبرنى عن قوله تعالى : ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ (٧٠)﴾ [الرحمن] فقال رسول الله ﷺ : خيرات الأخلاق حسان الوجوه.. فقالت أم سلمة: فأخبرنى يا نبى الله عن قوله تعالى : ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ (٤٩)﴾ [الصافات].. قال رسول الله ﷺ : «رقتهن كرقة الجلد الذى فى داخل البيضة مما يلى القشر».

قالت أم سلمة: أخبرنى يا رسول الله عن قوله تعالى: ﴿عُرُبًا أَتْرَابًا (٣٧)﴾ [الواقعة] .. قال رسول الله ﷺ :

«هن اللاتى قبضن فى دار الدنيا عجائز رمصاً شمطاً، خلقهن الله يوم القيامة بعد الكبر فجعلهن عذارى.. عرباً متعشقات محببات.. أتراباً على ميلاد واحد.. أى فى سن واحدة.

فقالت أم سلمة: يا رسول الله أنساء الدنيا أفضل أم الحور العين؟ قال النبى - عليه الصلاة والسلام: «بل نساء الدنيا أفضل من الحور العين كفضل الظهارة على البطانة»..

فقالت أم سلمة : يا رسول الله وبِمَ ذلك؟ قال عليه الصلاة والسلام : «بصلاتهن وصيامهن لله عز وجل، ألبس الله وجوههن النور، وأجسادهن الحرير.. بيض الألوان.. خضر الثياب.. صفر الحلى.. مجامرهن الدر.. وأمشاطهن الذهب.. يَقُلْن: نحن الخالدات.. فلا نموت أبداً، ونحن الناعمات.. فلا نبأس أبداً، ونحن المقيمات فلا نظعن أبداً.. ونحن الراضيات فلا نسخط أبداً.. طوبى لمن كنا له وكان لنا».

قالت أم سلمة : يا رسول الله، المرأة منا قد تتزوج الزوجين والثلاثة والأربعة فى الدنيا، ثم تموت فتدخل الجنة، فمع أى الأزواج تكون؟

قال النبى ﷺ: يا أم سلمة إنها تُخيَّر، فتختار

أحسنـهم خُلقاً. فـتقول: يارب إن هـذا كان أحسن خـلقاً معـى، فزوجنيـه، يا أم سلمة ذهب حـسن الخلق بخـير الدنيا والآخرة»[1].

وهكذا نرى أن وصف رسول الله ﷺ الـنساء بأنهن ناقـصـات عـقل ودين مـعناه: أن المـرأة تفـعل أشـيـاء بعاطفتها يقف العـقل عندها. أما مسألة الدين فهى بحكم طبيـعة خلقهـا، تمر عليهـا أيام فى الدنيا لا تؤدى فيـها صـلاة ولا صيـامـاً.. وهذا ليس عيـبـاً.. لأن الله خلقهـا هكذا.. فهذه طبيعتها لتؤدى مهمتها فى الحياة.

إذن: فالمـسألة شَرْح لطبيـعة المرأة، وليس مـحاولة للانتـقاص منهـا، وإلا مـا كان رسـول الله ﷺ قد أخـذ برأى أم سلمة فى صلح الحديبية.

إن من يحاول تفـسيـر هذا الحديث النبـوى الشريف على أنه طعن فى المرأة، يكـون قد جانبه التـوفيق، ولم يفهم مـعنى الحديث، ولا مـا هو المقصـود بالنقص فى العقل والدين!

إن الله ـ سبـحانه وتعالى ـ قـد جعل لكل من الرجل والمـرأة مـهمـتـه فى الحـياة، وتم الخـلق ليناسب هذه

---

(١) أورده الهـيثمى فـى المجـمع (١٠/٤١٧، ٤١٨) وقـال: «رواه الطبـرانى فى الأوسط والكبير، وفى إسنادهما سليمان بن أبى كريمة وهو ضعيف».

المهمة. فالرجل لأنه يسعى فى سبيل الرزق محتاج لأن يُحكِّم عقله وحده دون عاطفته، حتى يستطيع أن يحصل على الرزق، ويوفر للأسرة احتياجاتها..

والمرأة لأنها هى التى تحنو وتربى، وهى السكن، لابد أن تكون عاطفتها أقوى ، لتؤدى مهمتها ، ومن تمام الخلق، أن يكون كل مخلوق مُيسَّراً لما خُلِق من أجله.



الفصل الخامس

للذكر مثل حظ الأنثيين

بعض الناس يتساءل : لماذا يأخذ الرجل ضعف المرأة فى الميراث؟

ولماذا شهادة الرجل بشهادة امرأتين؟

أليس هذا تمييزاً للرجل على المرأة؟

هذه القضية أخذت ومازالت تأخذ جدلاً كبيراً، والذى يجادل فيها - كما قلنا - هم من غير المؤمنين.. هم الذين يملأون الدنيا بالأكاذيب عن الإسلام، وعن المرأة فى الإسلام.. وكيف تُعامَل المرأة المسلمة معاملة الرقيق؟ وإنها بلا حقوق.. وغير ذلك من الافتراءات والأكاذيب المختلقة التى يشيعونها بهدف الطعن فى الإسلام.

يقول الله - سبحانه وتعالى - فى كتابه العزيز :

﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ.. (١١) ﴾ [النساء]

ويقول تبارك وتعالى فى محكم التنزيل:

﴿ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٧٦) ﴾ [النساء]

ونحن لن نتحدث عن تلك الأنظمة غير الإسلامية التى تحرم المرأة من الميراث أو تعطى الميراث للأخ الأكبر وحده.. إلى غير ذلك.. لأننا لسنا محتاجين لأن نستعرض كل هذا. فالله ـ سبحانه وتعالى ـ هو الذى خلق، وهو جَلَّ جلاله الذى حكم، ونحن كمؤمنين نطيع ما أمر به الله.

إن علة الطاعة ليست فى الأمر، ولكن فى الآمر به، فمادام الله قد قال فقد لزم. فهو تبارك وتعالى المطاع فى كل أمر، والله ـ سبحانه وتعالى ـ يقول فى كتابه العزيز :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ[1] مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا (٣٦) ﴾ [الأحزاب]

وحول هذا الموضوع نذكر ـ بتوفيق الله ـ ما أفاء الله علينا فى معنى الآية الكريمة : ﴿ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ.. (١١) ﴾ [النساء]

المرأة تعيش حياتها كلها فى كنف رجل مكفولة منه، مسئول هو عنها، فإن كانت فتاة، فالذى ينفق عليها هو والدها، وإذا فقدت والدها أنفق عليها أخوها، أو عمها أو

(١) الخيرة: الاختيار، نزلت فى عبدالله بن جحش وأخته زينب عندما رفضا أن يتزوج زيد زينب.

خالها. ولذلك فهى مكفولة من رجل دائماً. فإذا تزوجت فهى مسئولة من زوجها هو الذى ينفق عليها، ويوفر لها مقومات حياتها، وعلى أسوأ الأحوال فهى مسئولة عن نفسها فقط، وهى ليست مسئولة شرعا أن تنفق على إنسان آخر مهما كانت درجة قرابته.

لكن الرجل له وضع مختلف، إنه مسئول عن غيره، فهو مسئول شرعاً عن أمه وإخوته، وعندما يتزوج يصبح مسئولاً عن زوجته.. أما المرأة فيعولها وليُّها قبل أن تتزوج، ويعولها زوجها بعد الزواج ثم يعولها أولادها بعد ذلك.

ولنفرض أن الأب يملك ستة أفدنة، وليس له سوى ابن وابنة.. الابن يحصل على أربعة أفدنة.. والابنة تأخذ فدانين..

فى أقسى الظروف الابنة قد تضطر أن تعول نفسها فقط.. ويكفيها الفدانان، وعندما تتزوج يعولها زوجها وتوفر الفدانين لما قد تحتاجه زيادة عما ينفق عليها زوجها.

أما الابن الذى أخذ أربعة أفدنة، فسيتزوج امرأة ويعولها، وتصبح الأفدنة الأربعة، لتوفير الحياة لاثنين وليست لفرد واحد. فمن عنده أكثر من الآخر؟ المرأة طبعاً.. لأنها غير مسئولة عن أن تعول أحدا.

وإذا أخذنا المسألة بالمتقابلات.. أقول لك مثلا : أنا

عندى بنت وولـد، وأنت عندك بنت وولد، كل من الابـنتـين أخـذت ثلث الميـراث، وكل من الولدين أخـذ ثلثى الميـراث. ابنتـى تزوجت ابنك.. وابنـتك تزوجت ابني.. يـصـبـح لكل عائلة ميراث كامل، وتكون المسألة قد تساوت..

الله ـ سـبـحانه وتعـالى ـ حـينمـا خلق الحـيـاة وخلق الإنسان ووضع له منهجـاً ليعيش به، وهذا المنهج أنزله الله من السـمـاء ليعطى لـلإنسان الحـيـاة الآمنة الكريمـة على الأرض. فـقال سـبـحانه : افـعل كـذا ولا تفعـل كذا ليـقى المجتـمع البشرى من شرور سـيعانيها لو تـركت المسائل لشهـوات الناس وظلمهم، والدين لا يتدخل فـيما ليس فـيه هوى النفس، إنما يتركه للإنسان.

التـجارب الـتى تجرى فى المـعـمل على المـادة، والعلم التـجـريبى الذى لا تحكمـه إلا التـجـربة المـعـمليـة.. هذه التـجارب لا يتـدخل فـيهـا الدين.. إلا أنه يطلب الأمـانة فى العمل وفى النتائج.

حدود العلم التجريبى

إنك لن تجد خلافاً بين البشر أبداً فى هذا العلم.. لن تجد كيمياء فرنسية.. وكيمياء أمريكية.. أو كهرباء سوفيتية وكهرباء إنجليزية.. بل العلم واحد تنقله الدنيا عن بعضها البعض، بل وتسرقه من بعضها البعض، وتتنافس الدول على اختطاف العلماء، واغرائهم ليعملوا فى خدمتها.

والقرآن الكريم يعطينا مجال العلم البشرى.. فى آيتين اثنتين من آياته.. فيقول الله ـ سبحانه وتعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ[1] بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ[2] سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ[3]

---

(١) الجدد : طرق وخطوط مختلفة الألوان.

(٢) غرابيب سود : صخور متناهية فى السواد كالغربان.

(٣) الأنعام : الإبل والبقر والضأن والمعز.

مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨)﴾ [فاطر]

الله - سبحانه وتعالى - حدد لنا أنه يُنزل من السماء ماء فيخرج به الثمر. هذا هو علم النبات باختلاف ألوانه. وكل ما يتعلق به، سواء كان من ألوان الثمر التى تنبت باختلاف أنواعها، أو البذرة وانتقائها، والأبحاث التى تتم لتحسينها، أو الآفات التى تصيب الزرع، وكيفية الوقاية منها أو المخصبات التى تستخدم لزيادة المحصول أو ما يستخدم فيه الثمر، سواء كان يؤكل أو يعصر أو يستخرج منه الدواء أو يكون صالحاً كعلف للماشية. وغير ذلك من كل استخدامات النبات، سواء كان لتنقية البيئة من التلوث.. أو للرائحة العطرة التى يمكن أن تستخرج منه، أو للجمال والزينة، أو لكل ما يعطى النبات للحياة من فوائد علمية تفيد الإنسان فى حياته.

ولعلنا نشهد ثورة عالمية فى استخدام المواد الطبيعية لعلاج الأمراض، والبعد عن الكيماويات التى ثبت أنها تصيب الجسد البشرى بأضرار أكثر من النفع.

ولقد تقدمت أبحاث النبات الآن لدرجة كبيرة ، وكشف الله جل جلاله لخلقه أسراراً كثيرة، للدور الذى يمكن أن يؤديه النبات فى حياة الإنسان. فوجد أن هناك نباتاً رائحته تطرد الحشرات، وهو يستخدم الآن كمبيد حشرى ونبات

رائحته تجذب الحشرات، وهو يستخدم الآن فى جذب الحشرات إلى الأماكن التى يراد جذبها إليها. ونبات له فوائد طبية كبيرة بالنسبة لعلاج الكثير من أمراض البشر.

إن العلاج بالأدوية المستخلصة من مواد طبيعية.. أصبح الآن هو السائد فى الدول المتقدمة.

لقد ثبت أن أنقى أنواع الأنسولين وأكثرها فاعلية بالنسبة لمرض السكر، هو الأنسولين البشرى، ومجالات كثيرة يعرفها أولئك المتخصصون فى هذه العلوم.

نقول: إن هذه الأبحاث لا يتدخل فيها الدين ليضع فيها منهجاً، لأنها تحكم نفسها، لأنها تجارب تشاهد فى المعمل، وليس مع العين أين.

ثم تمضى الآية الكريمة : ﴿ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) ﴾ [فاطر]

وهذه إشارة إلى ما تحتويه الأرض من كنوز.. سواء كان فى الجبال التى تعطيها المعادن الموجودة فيها ألوانها، فتجد الجبال التى تحوى الحديد لونها أسود، وتجد الجبال التى تحوى المعادن الأخرى يكسبها المعدن اللون الذى تبدو به، وكذلك ما يحتويه باطن الأرض.. مصداقاً لقوله - سبحانه وتعالى :

﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ (٦) ﴾ [طه]

فللإنسان أن يبحث كما يشاء.. فى الجبال وباطن الأرض، ويكتشف من الكنوز التى خلقها الله ـ سبحانه وتعالى ـ ما يستطيع، وهناك دول الآن من أغنى دول العالم كدول البترول ـ مثلا ـ تعيش على ما تحت الثرى لا ما فوقه، وللإنسان أن يأخذ من المعادن التى خلقها الله ـ سبحانه وتعالى ـ له فى الجبال وفى باطن الأرض ما يجعله يستخدمها فى صناعاته المختلفة.

ثم يقول الحق ـ سبحانه وتعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ..(٢٨)﴾ [فاطر].. وهم الذين يدرسون كل ما يتعلق بالإنسان وكل ما يصيبه من أمراض.. من حيث دراسة خلايا جسده وبيئته إلى غير ذلك.. وكذلك الدواب والأنعام بكل أنواعها.

والدواب هو كل ما يدب على هذه الأرض، هذه أيضاً مجال العلم البشرى يكتشف فيها مكونات الدم وما تفعله الميكروبات والجراثيم، وعلم البيئة وغير ذلك من العلوم.

ولذلك يقول الله ـ سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ..(٢٨)﴾ [فاطر] .. أى أن العلماء كلما زادت دراستهم لهذه الأشياء، أحسوا بعظمة الله فى خلقه، وجليل قدرته فيما صنع، فزادت خشيتهم له؛ لأنهم أحسوا بعظيم القدرة وجلال الخلق.

إن الدين يتدخل لينظم حركة الحياة فيما يخضع لأهواء

الناس.. فى التقنين البشرى الذى يحاول كل إنسان أن يتمه ليحصل منه على أكبر فائدة.

فإذا أخذنا النظريات السياسية مثلاً أو النظريات الاقتصادية أو القوانين التى تخضع لهوى النفس، نجد أن كل من يضع هذه القوانين.. إنما يحاول أن يحصل على أكبر فائدة شخصية، دون النظر إلى العدالة أو حقوق الناس.

إننا نجد مثلاً قوانين الدول الرأسمالية تعطى أكبر المَيْزات لأصحاب رأس المال، وأقلها لغيرهم.. كذلك القوانين فى الدول الشيوعية، تعطى الميزات كلها لأعضاء اللجنة المركزية ولا شىء لغيرهم!

عندما يكون هناك هوى، وعندما يتدخل هذا الهوى فى تقنين الأحكام لمصلحة فئة على حساب أخرى، هنا يتدخل منهج السماء.. لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ رب الجميع.. ﴿ مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَدًا (٣) ﴾ [الجن] ، وهو جل جلاله لا يطمع فيما بين أيدينا.. لأن عنده سبحانه كنوز السموات والأرض، وهو المعطى بدون حساب.

إذن: فالله ـ سبحانه وتعالى ـ حين يقنن للبشر، إنما يعطى كل ذى حق حقه دون ميل أو تمييز. فإذا قال الحق ـ تبارك وتعالى : ﴿ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ.. (١١) ﴾ [النساء].. فيجب أن نعلم أن هذا الحكم عادل لم يقصد به تفضيل جنس على آخر، لأن الله الذى خلق الإنسان يعرف

ما يصــلح لمهمــته فى الحــياة. ولذلك أعطى كل واحـد علىٰ قدر تبعاته.

لقد أعطى المـولى ـ سبحانـه وتعالى ـ الذكر نصيـبين؛ لأنه سيتزوج ويعول أنثى، وأعطى الأنثى نصيباً واحداً، لأن غـاية ما ســتتــحمله ـ وفــى أقسى الظروف ـ هو أن تقـيم حـياتهـا أو تنفق على نفـســها، ولكنـه ميَّــزها ولم يُردْ أن يحرمهــا، لأنها عندما تتزوج سيكون هـناك من يعولها ومن هو مســئول عنها، فــأبقى لها نصــيبهــا رغم أن هناك رجلاً سيـعولها ويكـفلها وينفق عليهــا. أليست هذه مـيزة؟. وهل يعتبر هذا انتقاصاً من حق المرأة؟

نصف شهادة.. لماذا؟

ثم نأتى للآية الكريمة الخاصة بالشهادة.. يقول الله - سبحانه وتعالى :

﴿ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ [1] إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ.. (٢٨٢) ﴾

[البقرة]

لقد ثار جدل كبير حول هذه الآية.. حتى أن بعض المشتغلات بالإعلام كَتَبْنَ يقُلْن: كيف لا تساوى شهادة امرأة حاصلة على الماجستير أو الدكتوراه، شهادة بواب العمارة التى تسكن فيها، وربما يكون أمياً لا يقرأ ولا يكتب؟ وكيف أن شهادة حاملة الدكتوراه.. تساوى نصف شهادة بواب العمارة الأمى؟!

ولقد وجد هذا المنطق الخاطىء رواجاً بين الناس، حتى أن بعضهم أخذ يردده ترديداً أعمى، وهو غير فاهم لحكم

(١) تضل : مخافة أن تخطىء أو تنسى.

الله.. وكأنه يريد أن يُعدِّل الحكم على الله ـ سبحانه وتعالى ـ مع أنه لا يفهم معنى ما يقوله.

إن ذلك المنطق الكاذب يجد كثيراً من الآذان التى تستمع إليه، دون أن تعيه، وترددده دون أن تفهم معناه، وإذا كنا نريد أن نضع المعانى فى إطارها الصحيح السليم.. فلابد أن نفهم معنى كلمة شهادة.

كلمة شهادة مأخوذة من مشهد.. أى شىء تراه بعينيك، وتراه واقعاً أمامك، وهذا المشهد أو الشىء المشهود ليس محتاجاً إلى علم.. ولا إلى درجات علمية.. ولا إلى عقل درس حتى درجة الدكتوراه. ولكنه محتاج إلى عين تشهد، وإلى كلمة صدق تقال.. أما غير ذلك فلا.

ومن هنا فإن الملاحظة التى أبديت غير ذات موضوع، ولا تنطبق على الشهادة. لأنه ليس هناك أبحاث علمية تجرى، ولا تجارب معملية تتم، ولا غير ذلك مما يقتضى ثقافة معينة لابد أن تتوافر، وعلماً سابقاً لابد أن يكون موجوداً.

ومن هنا يتساوى خلق الله الذين حصلوا على أعلى درجات العلم، وخلق الله الذين لم يقرأوا حرفاً فى حياتهم. فمنطق الثقافة لا يعتد به هنا.

المسألة اذن ليست رجاحة عقل، ولكنها صدق وأمانة نقل.

وإذا نظرنا إلى طبيعة المرأة نجد أنها مخلوقة على

الستر، فهى ممنوعة من مخالطة الرجال، وأنا أريد كلمة حق من المـرأة : هل إذا حدثت مشـاجرة فى الطريق الـعام، هل يسـوغ للمـرأة أن تسـرع إلى الدخـول فـيـهـا، لمـعـرفـة مـا يحدث؟ أم أنهـا تبـتعـد عنها تمـامـاً اتقاء للأذى حـتى لا تصاب بسوء. طبعاً هى تبتعد عنها. لماذا ؟

أولاً: لأنها مخلوق ضعـيف.. لا قدرة لها على المنازلة أو المشاجرة،.

وثانياً: لأنها مخلوق عاطفى ستصاب بأذى فى نفسيتها من مظاهر العنف والضرب فى هذه المشاجرة.

وثالثاً: لأن تـعرضهـا لمثل هذا الحـدث، يُوْجِدُ احـتكاكا عنيفـا بينها وبين الرجـال مما يعـرضها لخـدشِ كرامتـها وحيائها. إنها تبتعد عن المشاجرة، حتى ولو كان المتشاجر زوجها أو أخاها وتستغيث بالرجال.

إن عاطفة المـرأة هى رصيد الحنان للأسرة والمـجتمع، وتحكم العـاطفة عـلى العقل فـيه تضـحـية، وقـد يكون له سلبيات غير ضارة.

لكن الحكمة تقـتضى أن تكون طاقة العاطفـة عند المرأة أقـوى مـنهـا عند الـرجل؛ ليكون التــعـادل والتـكامل فى المجتمع.

المرأة ومشاكل الحياة

والمرأة بطبيعتها بعيدة عن مشاكل الحياة العامة.. لأن هناك رجلاً يعولها، وهو الذى يتصدى لهذه المشاكل، وهو الذى يتداخل فيها ويحلها.

لهذه الأسباب وغيرها من الأمور التى تتعارض مع طبيعتها، فإن المرأة لا تصلح شاهدة كالرجال. لأنها لو عرفت بعض التفاصيل، غابت عنها تفاصيل أخرى، لأنها بطبيعتها تبتعد عن المشاكل.

ولذلك فإنه لا حجية لمن يقول: كيف لا تتعادل شهادة الأستاذة الجامعية مع شهادة البواب الأمى؟ لأن العقل هنا لا دخل له فى القضية، ولكن صدق النقل الذى ترتب على الوجود والمشاهدة هو الذى يعنينا.

إن هذا الاعتراض قد أغفل مهمة الشهادة، وجعلها مهمة تعتمد على العقل وثقافته.. بينما هى فى الحقيقة تعتمد على صدق النقل والمشاهدة فقط.

وقول الحق - تبارك وتعالى : ﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا ..(٢٨٢) ﴾ [البقرة].. فإن هذا الضلال يأتى من عدم دقة المشاهدة، ومن أن المرأة تحرص على أن تبتعد عن كل مشاحنة، أو اشتباك يحدث فيه العنف.

والله ـ تبارك وتعالى ـ يقول عن الشيطان :

﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا(٧٦) ﴾ [النساء]

ويقول عن النساء :

﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ(٢٨) ﴾ [يوسف]

لماذا يفهم بعض الناس هاتين الآيتين فهماً خاطئاً.. ما هو الكيد؟ إن الكيد تدبير بخفاء، والتدبير بخفاء لا يكون إلا من ضعيف، فالإنسان القوى إذا تملّك من عدوه قد يتركه لأنه قادر على أن يأتى به فى أية لحظة، فهو لوثوقه من قوته لا يهتم، وقد يترك عدوه عله يتوب، ولكن الإنسان الضعيف إذا تملك من عدوه فإنه لا يتركه أبدا.. لماذا؟

لأنه لا يثق فى أنه ستتاح له الفرصة ليتملكه مرة أخرى، ولذلك فإنه متى تملكه قضى عليه إحساساً منه بعجزه، وبأن الفرصة لن تأتى مرتين.

ولأن المرأة مخلوقة ضعيفة يكون كيدها عظيماً. فهى إذا تمكنت من عدوها، فإنها لا تُفوِّت الفرصة للقضاء عليه، لأنها لا تضمن أن تأتيها فرصة أخرى.

ولضعف المرأة فإنها لا ترتكب جريمتها بالعنف ولا بالمواجهة، ولكنها تكيد وتتحايل، فتضع السم لضحيتها، أو توقعه بحيلة ما بحيث يتولى غيرها القضاء عليه.

إن مظاهر العنف التى ظهرت فى الأيام الأخيرة من

بعض النســاء ليست القاعـدة ولكنها شـذوذ عنها. كـما أن الضـجة التى أحدثتـها هذه الجرائم أخذت أكبر من حـجمها. لأن الشــذوذ عن القـاعدة هو الذى يـحدث ضــجـة، ولكننا لو أخـذنا عدد النســاء اللاتى اســتخـدمن العنف فى فتـرة طويلة من الزمن.. نجد أنهن لا يتجاوزن عدد أصابع اليدين من بين ملايين النســاء، وحتى فى هذه الحالة، فـإن المرأة لا تأخذ طريق المواجهة، ولكنها تأخذ طريق الحيلة والكيد، بأن تســتخـدم مخـدراً أو غيـر ذلك من الأشيـاء التى تشل حركة ضـحيتهـا.. وعلى أية حال فالشـاذ من الأمور لا يقاس عليه.

«واضربوهن» بين الأمر والإباحة

نأتي بعد ذلك إلى قول الحق - سبحانه وتعالى - ﴿ واضربوهن.. (٣٤) ﴾ [النساء].. وذلك في الآية الكريمة :

﴿ وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ[1] فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ[2] وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيراً (٣٤) ﴾

[النساء]

بعض الناس يقول : إن ضرب النساء هو نوع من الوحشية.. فكيف يأمر الله به؟ ونقول لمن لم يفهم وغابت عنه الحكمة الإلهية في الآية الكريمة: إن الله - تبارك وتعالى - لم يأمر بضرب النساء، ولكن أباحه، وفرق كبير - كما قلنا - بين الأمر والإباحة، لقد جعله مرحلة ثالثة بعد الوعظ والتذكير بشرع الله وبعد الهجر في الفراش. مما يؤكد لنا أن المرأة هنا تكون مُصرةً على فعل ما يكرهه زوجها، وأن الموعظة معها لم تُجْد، والهجر في الفراش لم ينفع، وكل الوسائل لم تأت بنتيجة.

---

(١) النشوز: الترفُّع عن مطاوعة الأزواج، أو امتداد عيون النساء إلى غير أزواجهن.

(٢) المضاجع: أماكن الاضطجاع وهو النوم، كناية عن عدم القرب من الناشزات.

والشرع هنا يشترط أن يكون الضرب غير مبرح، أى مجرد إيلام خفيف، بعد أن فشلت كل الطرق فى إصلاحها وردها إلى الصواب.

الله - سبحانه وتعالى - أوجب على المرأة طاعة زوجها، لما يبذله من الجهد وما يتحمله من المشقة، ويتعرض للكثير من المضايقات.. بحيث يعود إلى بيته متعباً منهكاً، لا يتحمل مزيداً من المتاعب والعناد.

إن من واجب الزوجة فى هذه الحالة أن تكون سكناً لزوجها.. تزيل عنه إرهاق الحياة ومتاعبها، لا أن تزيد متاعبه وتعانده.. فإن ذلك يجعل الحياة بالنسبة له مستحيلة، ويؤثر على عمله ورزقه. والضرب ليس معناه الكراهية. ولكن معناه إظهار عدم الرضا عن شىء يحدث، ويسبب ألماً نفسياً للرجل.. يقابله بألم بدنى خفيف.

قد يقول بعض الناس: إن ضرب الزوج لزوجته معناه الكراهية. ونقول لهؤلاء : ألا يضرب الأب ابنه؟ أيكره الأب ابنه الذى هو قطعة منه؟ طبعاً لا.. بل إنه لا يحب شيئاً فى الدنيا أكثر من ابنه. ولكنه يريد مصلحته، وقد يسبب له ألماً خفيفاً ليقيه من آلام كثيرة سيتعرض لها لو استمر فى الطريق الخاطئ الذى يمشى فيه.

إن المجتمعات الإسلامية هى أقل المجتمعات ايذاء للنساء، لأن الشرع الحنيف يحض الأب والزوج على الترفق بهن لضعفهن وقلة حيلتهن، أما فى أوربا وأمريكا فإن الأزواج يضربون زوجاتهم ضرباً مبرحاً لدرجة أنه بدأت

تنشأ هناك جمعيات لحماية الزوجات من ضرب الأزواج!
والله ـ سبحانه وتعالى ـ قد جعل بين الأزواج والزوجات مودة ورحمة.. وذلك مصداقاً لقوله ـ تبارك وتعالى :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً .. (٢١) ﴾

[الروم]

هذه المودة والرحمة هى الرابطة بين الزوج وزوجته أوجدها الله.. لذلك لا تجد من هو أكثر تسامحاً من الزوج مع زوجته أو الزوجة مع زوجها.. يحدث بينهما الكثير، وبعد ساعة أو أقل.. تجدهما نسيا ما حدث، وعادا إلى الحب والصفاء، ورسول الله ﷺ يقول :

«استوصوا بالنساء ، فإن المرأة خُلقت من ضلع ، وإن أعوج شىء فى الضلع أعلاه. فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيراً»(١).

وهكذا نرى أن الضرب ليس علامة الكراهية، ولكنه قد يكون علامة حب، وأنه ما دام غير مبرح فإنه يسبب ألماً بسيطاً، وأن الإنسان قد يلجأ إلى ضرب خفيف مع من يحب لأنه يحب مصلحته، ويهمه أمره.

والمرأة بطبيعتها تتفهم ذلك من زوجها، وتعرف أن غضبه عليها ومعاقبته لها.. سرعان ما يتلاشى ويزول بزوال أسبابه، فتدوم بينهما العشْرة وكأن شيئاً لم يكن.

---

(١) متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣٣٠) ومسلم فى صحيحه (١٤٦٨) كتاب الرضاع من حديث أبى هريرة.



الفصل السادس

الحجـــاب والنقــاب

سألتنى صحفية إنجليزية: لماذا يمنع الدين الإسلامى المرأة من أن ترتدى ما تشاء؟ لماذا يقيد حريتها فى أن تختار ثيابها وترتدى ما تحب؟ أليست هذه حرية شخصية للمرأة؟

قلت : قبل أن أجيب عن هذا السؤال، لابد أن نتفق على نقطة هامة.. هى أن الإنسان الذى يعيش فى مجتمع ما يسمى بالحرية المطلقة. لابد أن تكون حريته حرية نسبية، لا تعتدى على حريات الآخرين، وبعيداً عن مخالفة الدين وتعاليمه.

هل تستطيعين أنت أن تفعلى ما تريدين؟ إذا أردت أن تمشى فى الطريق العام بدون ملابس على الإطلاق.. فهل يمكنك ذلك بدعوى أنك حرة تفعلين ما تشائين؟!

إذا أردت أن تستمعى إلى موسيقى عالية بعد منتصف الليل.. فهل تستطيعين أن تستمعى إلى الراديو فى أعلى صوت؟ أو إذا أردت أن تصلحى شيئاً فى منزلك والناس نيام.. فهل تستطيعين إحضار النجار أو النقاش ليفعل ما يشاء؟.

هل تستطيعين إذا دخلت أحد المحال أو البنوك ووجدت صفاً طويلاً من الناس يقف.. هل تتجاهلين الصف وتكونين أول الواقفين؟.

هل تستطيعين أن تتركى سيارتك وسط الطريق أو فى

مكان ممنوع فيه الانتظار لأنك حرة، ومن حريتك أن تضعى سيارتك فى المكان الذى تريدينه؟ بل هل تستطيعين أن تتجاوزى بسيارتك السرعة المسموح بها، وهل تستطيعين أن ترتكبى فعلاً فاضحاً أمام الناس.. لأن ذلك من حريتك؟

وأستطيع أن أمضى إلى ألوف الأمثلة.. لأنه لا يوجد شيء اسمه الحرية المطلقة فى أى مجتمع من المجتمعات، ولكنها حرية نسبية.. تعطيك من التصرف الذى تريدينه ما ليس فيه اعتداء على حرية الآخرين. فإذا حدث اعتداء على هذه الحرية، فإن المجتمع يتدخل ليوقفك عند حدٍّك قائلاً : هذا ليس من حريتك لأنك اعتديت على حرية الآخرين.

الطريق الوحيد لكى تتمتعى بالحرية المطلقة.. هو أن تذهبى إلى مكان لا يعيش فيه أحد.. مكان تعيشين فيه وحدك.. دون أن يكون فيه آخرون.. حينئذ تستطيعين أن تتمتعى بحريتك كما تشائين. فمادام لا يوجد أحد حولك، ولا أحد من الناس يراك.. فإنك تستطيعين أن تفعلى ما تشائين.

هذا بعيد عن منطق الدين وبعيد عن منهج السماء، فإذا كان هذا هو منطق الحياة فى الكون.. فكيف تريدين من منهج الله أن يخلق مجتمعاً من الفوضى الذى يضيع فيه كل شيء؟

الله ـ سبحانه وتعالى ـ يقول فى القرآن الكريم :

﴿ يَـٰأَيُّهَـا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَـاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ[1] عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ[2] ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥٩) ﴾ [الأحزاب]

ويقول ـ جل جلاله ـ فى كتابه العزيز :

﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ[3] عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ .. (٣١) ﴾ [النور]

هذا هو حكم الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالنسبة للمرأة، وهو إخفاء الزينة التى تلفت الأنظار.

---

(١) يدنين عليهن : يرخين ويسدلن عليهن.

(٢) جلابيبهن : ما يستترن به حتى لا يظهر إلا أقدامهن.

(٣) الخمر : جمع خمار وهو غطاء الرأس. والجيوب: جمع جيب وهو فتحة الثوب فى أعلى الصدر.

الحجاب .. لماذا؟

وبداية أحب أن أقول: إن من اختار الدين.. فعليه أن يقبل أحكام هذا الدين، حتى ولو كانت هذه الأحكام تقيد حريته فى افعل ولا تفعل. لأن تقييد الحرية هنا.. هو لخير الإنسان وليس شراً له..

إن هذه الأحكام جاءت من الله ـ سبحانه وتعالى ـ وهو أعلم بنا من أنفسنا. فإذا كانت تقيد حركتنا، فهى تعطينا الخير، وتُذهب عنا السوء؛ فلا يوجد دين بلا منهج.. إلا أن يحاول الإنسَان أن يرضى غريزة التدين فيه، وفى الوقت نفسه يفعل ما يشاء.. فيعبد الأصنام أو الشمس أو غير ذلك مما لا يقيده بمنهج فى الحياة، فيخلص نفسه من تعاليم الله ليفعل ما يشاء، وفى هذه الحالة يكون قد كفر والعياذ بالله.. لأنه لا يريد منهجاً سماوياً يقيد حريته.

والمرأة التى تتضرر من الحجاب بزعم أنه يقيد من حريتها بستر ما أمر الله من مفاتنها. عليها ألا تعترض على منح هذه الحرية لغيرها.. فإن أباحت لنفسها أن تتزين وتكشف عن مفاتنها لتجذب إنساناً وتفتنه. فعليها ألا

تعتـرض إذا سُرق زوجهـا منها بفـعل فاتنة، فمـادامت قد أباحت لنفسـها ذلك فلا تلومنّ إلا نفسـها.

إن الهدف هـو صيانة المـجتـمع كله من الفتنـة، وإبقاء للاستقـرار والأمن بالنسبة للمرأة.. حتى لا يخـرج زوجها من بيته وهى لا تعلم هل ستفتنه امـرأة أخرى فيتزوجها أم أنه سيعود إلى بيته؟

إن الله ـ سـبـحـانه وتعـالـى ـ قـد وضع من القـواعـد والضـوابط مـا يمنع الفـتنـة للمـرأة والرجل حـفـاظاً على استقـرار الأسرة وأمنها وأمانهـا، وحرَّم أى شىء يمكن أن تكون فـيه فـتنة من امرأة لرجل غـريب عنها، ولذلـك حرم إبداء الزينة إلا لمحارم المرأة.. فقال ـ تبارك وتعالى ـ :

﴿ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ[1] أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ[2] غَيْرِ أُوْلِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا[3] عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ.. (٣١) ﴾ [النور]

(١) البعول : جمع بعل ـ وهو الزوج.
(٢) التابعون : الخدم. غير أصحاب الحاجة إلى النساء والقدرة على ملامستهن.
(٣) أى : لم يبلغوا الحلم، أو لم يبلغوا حدَّ الشهوة.

وهؤلاء الذين ذكرهم الله ـ تبارك وتعالى ـ فى هذه الآية الكريمة هم من محارم المرأة التى لا تحرص على إبداء زينتها أمامهم، وحتى إذا فعلت.. فإن هذه الزينة لا تثير فى نفوسهم أية شهوة.. إما لأنهم لم يبلغوا السن التى يحسون فيها بالشهوة، وإما أنهم تعدَّوْا هذه المرحلة تماماً. بل إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ حرم على النساء أن يضربن بأرجلهن كنوع من التحايل لإظهار الزينة التى أخفتها الثياب، وذلك بتعمد اهتزاز الجسم لتظهر مفاتنها.. وقال الحق ـ جل جلاله:

﴿ وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١) ﴾ [النور]

كل هذا قد يفهمه البعض على أنه تقييد لحرية المرأة، ولكنه فى الحقيقة حماية لها.

لو أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لم يفرض الحجاب، لكان على المرأة أن تطالب به.. لأنه أكبر تأمين لها ولحياتها.. ذلك أن نضارة المرأة موقوتة، وفترة جمالها ـ لو حسبناها ـ فلن تزيد على خمسة عشر عاماً، ثم بعد ذلك تبدأ فى الذبول.

هَبْ أن امرأة بدأت فى الذبول وزوجها مازال محتفظاً

بنضارته.. قـادراً على الزواج.. وخرج إلى الشـارع ووجد فتاة فى مـقتبل العمـر وفى أتمٍ نضارتها وقد كـشفت عن زينتها . ماذا سيحدث؟!

إما أن يُفتن بهـذه الفتاة ويترك زوجته ويتـزوجها، وإما أنه عندما يعـود إلى المنزل يلحظ الفرق الكبيـر بين امرأته وهذه الفتاة، فيزهد فى زوجـته، ويبدأ فى الانصراف عنها.. لكن لو حـجبت النسـاء مفـاتنهن عن الرجال.. لصـارت كل منهن آمنة من فقـدان زوجها، ومن تغـيٌر نفسه من ناحـية زوجته، ولظلت محتفظة بحبـه لها وإقباله عليها.. لماذا؟ لأن الجـمال نمـو، والنمـو فى المخلوقـات والنبـات والحيـوان والإنسان لا يدركـه المتتبع لـه.. ولذلك تجد الرجل وله ولد ينظر إلـيـه كل يوم، فـلا يمـكن أن يلحظ أنه يكبـر، ولكن لو غاب عنه شهـراً.. يتجمع نمو الشهـر كله وهو بعيد عنه، وعندما يعود يحس بأنه قد كبر.

والفـلاح مثـلاً إذا جلس بجـوار الزرع.. لا يلحظ نمـوه ولا يراه.. فإذا غاب عنه فترة لاحظ هذا النمو.

الرجل مع زوجـته كـذلك.. فهـو عندما يتـزوجهـا وهى عروس تـكون فى أبهى زينتهـا ونضارتهـا، لكن لأنه يراها كل يوم، فـإنه لا يلحظ فـيـهـا أى تغيـيـر، وتكبـر وتذهب نضارتها وجـمالها من أمامـه شيئاً فشـيئاً، دون أن يلاحظ هذا الذبول، بل تظل فى عـينيه هى نفس العـروس الجمـيلة التى زُفَّتْ إليه.

ولكن إذا رأى امـرأة غيرها.. أصـغر منهـا ولا تزال فى قمة نضارتها.. بدأت المقارنة وأحسّ بالتغيير، وأثّر ذلك فى نفسه.

ولذلك ونحن نرى أمهاتنا بعد أن كبرن وملأت وجوههن التـجاعـيد.. لا نشـعـر بهـذا.. بل نجد فى أمـهاتنا نضـارة لا نشبع من النظر إليها.

فالله ـ سبحانه وتعالى ـ قد حجب المرأة من أن تستلفت الأنظار إليها بالكشف عن زينتها، وهو قد حجب غيرها ممن هُنّ أصـغر وأجـمل وأكثـر نضارة مـن أن يستلفـتن أنظار زوجها فيعرض عنها.

والعجـيب أن المرأة لا تلتفت إلـى هذه الحكمة، وهى أن الحجاب حماية لها، ولزوجها ولبيتها، بل تأخذ المسألة على أساس من الحرية الجوفاء.. ناسية أن هذا التقييد إنما شُرِّعَ لحمايتها.

والعـقاب فى الـشرع فى كل الحـالات.. لا يبـدأ إلا عند النزوع إلى عمل شىء.. فأنت ترى وردة جميلة.. انظر إليها كما شـئت فليس فى ذلك إثم ولا حساب، وتمتع برائحـتها كـما شـئت.. فليس هـناك إثم ولا حسـاب، إلا أن تمـد يدك لتقطعها.. حينئذ تكون قد اعتديت.

وأنت ترى فرساً جـميلة.. انظر إليها كمـا شئت.. وتمتع بالنظر إليـهـا كمـا تريد.. فـلا إثم عليك.. إلا أن تحـاول أن تركـبهـا دون إذن صـاحبـها، وهكذا كـل ما فى الدنيـا من جمال.. والله ـ سبحانه وتعالى ـ يقول :

﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ[1] وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨) ﴾ [النحل]

زينة لمن؟ ألصاحبها فقط؟ الآية جاءت بالزينة على إطلاقها، ولهذا فهى زينة لصاحبها، ولمن أراد أن ينظر إليها ويتمتع بجمالها. كل ما فى الكون من جمال.. انظر إليه كما تشاء.. فليس هذا محرماً.. إلا المرأة. فالنظرة إليها محرمة.. من المرأة للرجل.. ومن الرجل للمرأة.. والنظر إليها والتأمل فى جمالها من غير زوجها إثم، وكذلك الرجل بالنسبة للمرأة. نظر المرأة للرجل وتأملها فى ملامح رجولته إثم.

ولذلك يقول الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى كتابه العزيز :

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) ﴾ [النور]

وقوله جل جلاله :

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ.. (٣٠) ﴾ [النور]

---

(١) البغال : جمع بغل، وهو ابن الفرس من الحمار وهو لا يلد، فالشأن فى البغل العُقْم، وذكرها القرآن بين الخيل والحمير إشارة إلى تولدها منهما. [القاموس القويم ١/٧٦]

النظرة محرمة.. لماذا؟

لمــاذا حُــرِّمَتْ النظرة بيــن الرجل والمــرأة؟ ولم تُحَـرَّم بالنسـبة لبـاقى مـخلوقـات الكون؟!.. لأن النظرة هى بداية النزوع بالنسبـة للرجل والمرأة، ومـادامت النظرة قد بدأت فأنت لا تستطيع أن تتحكم فى نفـسك بالنسبة لما يمكن أن يحدث بعد ذلك.

النظرة قد أوجـدت تغييراً يـقودك إلى المعصــية، ولذلك نجـد مثـلاً عندما حـرم الله ـ سبـحانه وتعـالى ـ على آدم وحواء أن يأكـلا من الشجـرة المحرمـة فى الجنة.. لم يقل لهما: لا تأكلا من هذه الشجرة.. بل قال ـ جل جلاله :

﴿ وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ .. (٣٥) ﴾ [البقرة]

لماذا لـم يقل الله ـ سبحـانه وتعالى ـ لا تأكـلا من هذه الشجرة؟ لأنه أراد أن يحميهمـا من إغراء المعصية. فلو أنه قـال لهمـا : لا تأكـلا من هذه الشـجرة.. ربمـا جلسـا إلى جـوارها، فأغـراهمـا لون ثمارها أو شـكل هذه الثمـار، أو الرائحة المنبعثة منها، ولذلك قـال لهما سبحانه: ﴿ وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ..(٣٥) ﴾[البقرة] ليقيهما الإغراء الذى يمكن أن يوقعهما فى المعصية، وكما يقول رسول الله ﷺ :

«إن لله محارم فلا تقربوها، فمن حام حول الْحمَى أوشك أن يقع فيه»..

وقال الرسول ـ عليه الصلاة والسلام : «إن الله حد حدودا فلا تعتدوها، وفرض لكم فرائض فلا تضيعوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها»[1].

إذن: فتحريم النظر بين الرجل والمرأة حماية لكليهما، وقالت أم سلمة : كنت عند رسول الله ﷺ وعنده ميمونة فأقبل ابن أم مكتوم وكان أعمى.. ذلك بعد أمرنا بالحجاب، فقال رسول الله ﷺ : احتجبا منه، فقلنا : يا رسول الله أليس أعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا؟ فقال رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام : أفعمياوان أنتما.. ألستما تبصرانه[2]؟

والله جل جلاله يقول :

﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ..(٥٣) ﴾

[الأحزاب]

على أننا لابد أن نلتفت إلى حقيقة هامة.. هى أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يريد أن تعتدل الموازين فى كونه،

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه (١١٥/٤) عن أبى ثعلبة الخشنى، وتمامه: «وترك أشياء من غير نسيان من ربكم، ولكن رحمة منه لكم فاقبلوها ولا تبحثوا فيها».

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٢٩٦/٦) والترمذى فى سننه (٢٧٧٨) وأبو داود فى سننه (٤١١٢) قال الترمذى : حديث حسن صحيح.

ويريد للعقل الذى ميَّز الله به الإنسان أن يعطى حرية الاختيار دون أية مؤثرات، حتى تستقيم الأمور فى الكون، وإظهار المرأة لمفاتنها يجعل الميزان يختل.. لماذا؟

لأن المرأة إذا تعمدت إغراء رجل غريب بزينتها والكشف عن جسدها.. تتدخل فى عمل العقل. لأنه فى هذه الحالة، قد يتخذ قراراً ويعلم أنه باطل لينال من هذه المرأة أو يرضيها، وكلنا يعلم تأثير النساء فى الصفقات التى تحدث فى العالم كله، وكيف أنهن يتخذن كوسيلة للإغراء ليقضى الإنسان بغير الحق، ويختل ميزان الحكم.

كل هذا موجود فى شركات عالمية كبيرة تستخدم إغراء المرأة لتتم أعمالاً وصفقات مشبوهة.. ما كانت لتتم لو أن الميزان كان معتدلاً، والعقل هو الحكم الوحيد فى هذه المسائل من أمور الدنيا.

لا.. للتبرج

والغـريب أنك تجد بعض الرجـال أشد تحـمسـاً ودفعـاً للمرأة لإبداء زينتها وعدم التحجب وإلى الاختلاط بالرجل..

ونحن نقول لهـؤلاء الرجال : إن الله قد وضــع لكم القانون الذى يحمى زوجاتكم وبناتكم. فإذا كنتم تدفعون بعض النساء للتبـرج. فأنتم قد وضــعتم ـ باستـباحتـكم النظر إلى زوجات وبنات غيركم ـ المبدأ لنظر المجتمع كله إلى زوجاتكم وبناتكم. إن الله قد حـماكم من هذا، ولكنكم استبـحتموه فـلا تلوموا إلا أنفسكم إذا انحرفت الزوجة أو الابنة.

بل من الغـريب.. أن بعض الأمــهـات يمنعـن بناتهن من الحجـاب ويقاومن هذا بدعوى أنـه يقلل فرص الفتـيات من الزواج. نقـول لهن: متى كـان الزواج ابتـذالا؟. ومتى كـان الزوج يبحث عن فتاة متبرجة ليأتمنها على عِرْضه وسُمْعته وكرامته؟

إن الإنســان يبـحث عن الفـتاة المـتـدينة. التى تصـونه وتحفظه إذا غـاب فى عرْضه ومــاله وأولاده. ولا يبحث عن فتاة متبرجة تعرض مفاتنها على الناس.

ونقول لكل أم تتخذ هذا السبيل : إن القصاص فى هذه المسألة يتم فى الدنيا، فالزوجة التى تبرز مفاتنها للناس، أو تمنع ابنتها من التحجب ستجد القصاص إما فى زوجها أو فى ابنها.. وستجده فى فتاة صغيرة تخطف الزوج منها، أو فى فتاة تخطف ابنها فى أولى سنوات عمره، فتفسد عليه حياته وتضيع مستقبله.

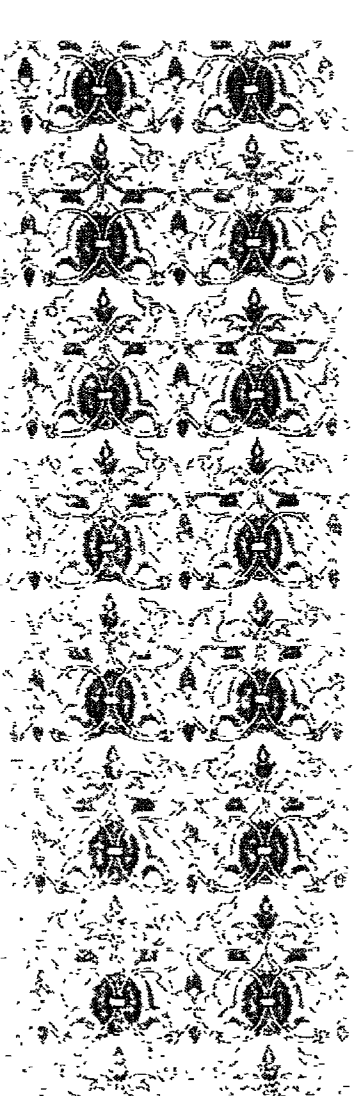
وهكذا لا يعتقد أحد أنه وهو يحارب شرع الله، ويحارب دين الله، سيكون المنتصر أبداً. بل يبعث الله من يفسد عليه حياته ويملؤها بالشقاء.

على أننا قبل أن ننتهى من الحديث عن الحجاب.. فلابد من كلمة حول الحجاب والنقاب، وما دامت المسألة تدور كلها على ألا تكون المرأة فتنة للرجال، ولا دعوة لهم إلى المفسدة.. فإننا ـ ومع الخط العام ـ نقول : إن كان وجه المرأة جميلاً.. جمالاً فتاناً.. يمكن أن يأتى بتأثير على كل من يراها، ففى هذه الحالة يجب أن تستر وجهها. أما المرأة العادية، فلا ضرورة لأن تستر وجهها وكفيها، ولذلك أقول عن النقاب.. إن النقاب لا مفروض ولا مرفوض.

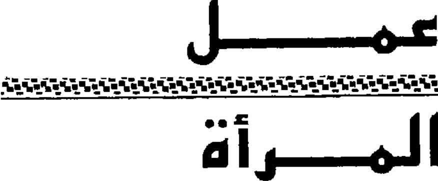
ولقد تحدثنا فى هذا الفصل عن الحجاب بالنسبة للمرأة، وكيف أنه لصالحها ولأمنها، وليحفظ لها بيتها وزوجها، وأنه من مصلحة المرأة ـ قبل غيرها ـ أن يكون الحجاب عاماً.. وألا يختلط الرجال والنساء، وأن المرأة التى تسمح

لنفـسـهـا.. بـأن تفتن أزواج غـيرها بدعـوى الحرية أو غـير ذلك.. لابد أن تسـمـح لغـيرها بـأن تخطف منهـا زوجهـا.. ورسـول الله ﷺ يقول : «تنكح المرأة لأربـع.. لمالها وجمالها وحسبها ودينها، فاظفر بذات الدين تَرِبت يداك»[1].

(١) متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠٩٠) وكذا مسلم فى صحيحه (١٤٦٦) كتاب الرضاع.



الفصل السابع



عمل المرأة

قبل أن نتحدث عن حكم عمل المرأة في الإسلام.. لابد أن نتناول حديث رسول الله ﷺ الذي يقول فيه : « استوصوا بالنساء، فإن المرأة خُلقت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه.. فإن ذهبتَ تقيمه كسرته.. وإن تركته لم يزل أعوج. فاستوصوا بالنساء خيرا»[1].

بعض الناس يأخذ هذا الحديث على أنه انتقاص من شأن المرأة وإهانة لها، والحقيقة أنه كما فُسِّرَ حديث: «ناقصات عقل ودين» بما لا يتفق مع واقعه، كذلك فُسِّرَ هذا الحديث بما لا يتفق مع واقعه. فالضلع مخلوق في صورة مقوسة ليؤدي مهمته في الحياة، لأنه لو استقام لما أدى مهمته في أن يحمي الصدر.

إذن: فهو في خلْقَته أعوج.. يعني أنه خُلق صالحاً لأن يؤدي مهمته في الحَياة ، وأن يحافظ على الصدر ويحميه من أن يُصاب بسوء.

والمرأة مخلوق يملؤه الحنان؛ ليحافظ على أثمن شيء في الوجود وهو الأولاد. فإذا أردت أن تعدله، لا ينفع ويتحطم.

المرأة مهمتها عاطفية، لأنها تعاشر ابنها من ساعة

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٤٦٨) كتاب الرضاع، والبخاري في صحيحه (٣٣٣٠) من حديث أبي هريرة.

الحمل إلى أن يبلغ مبلغ الرجولة، ولذلك فهى عندما تسير وهى حامل.. تسير بحساب.. وتتحرك بحساب.. تخاف على ابنها، وإذا تعرضت لخطر فقد لا تدفع الأذى عن رأسها أو عينيها، ولكن أول ما تدفع عنه الأذى هو بطنها الذى تحمل فيه طفلها.

وكما بيّنّا فإن قول - رسول الله «ناقصات عقل ودين».. هو إخبار لنا بأن المرأة قد خُلقتْ وطبيعة عقلها تساعدها على تمام أداء مهمتها كزوجة وأم.

الرجل والمرأة متشابهان، ولكنهما مختلفان عند توزيع الطاقات. الرجل محتاج إلى عقل لا تغلبه العاطفة، والمرأة محتاجة إلى عاطفة لا تُلغى العقل.

ومن تمام كمال خلق المرأة.. أنها خُلقت من ضلع أعوج.. لتحنو على طفلها وتربيه، وعندها الصبر الكبير الذى منحها الله إياه لتقدر على هذه المهمة الشاقة، وهى سعيدة ومسرورة بما تفعله، وهى تحنو على طفلها الأيام الطويلة دون ملل، ودون ضيق وبنفس راضية.

لقد عرفنا أن العوَج فى الضلع ليس عيباً ولكنها ميزة.. تماماً كالسنارة الّتى نصطاد بها السمك.. من تمام أداء مهمتها أنها معوجة، ولو أن إنساناً جاء فجعلها مستقيمة، فلن تؤدى مهمتها، ولن تصطاد سمكة واحدة.

ذلك توضيح أردت أن أقوله حتى لا يُسَاء فهم هذا الحديث.. فالاعوجاج هنا من تمام الخلق، ومن تمام كمال

مهمة المرأة فى الحياة وليس عيباً فيها.

نأتى بعد ذلك إلى الحديث عن عـمل المرأة فى الإسلام.. وكمـا قلنا: لو نظرنا إلى عمل المـرأة لأشفقنا عليـها.. لأننا سنجـد أن عملها أصـعب وأشق من عمل الرجـل. لأن عمل الرجل محصور فى طلب الرزق، ثم راحة بعد ذلك.. أما هى فعـملها يبدأ عندما تعـود إلى البيت بعد يوم عـمل شاق فى وظيفتـها، لتجد أمامهـا أطفالها وزوجها وبيـتها.. كل منهم يطلب طلباً.

قـد يقـال: إن المـرأة فى الريف تعـمل فى الحـقل وفى المنزل..

نقول: نعم، ولكنها تعمل مع بنات جنسـها أو أشقائها أو محـارمهـا.. وكلهم يعمل مـعهـا. فإذا كـانت يوماً مُـتْعـبة أعـانوها، وإذا كان العـمل كثـيـرا، فهى يمكن أن تعـود إلى بيـتـهـا مـتى شـاءت، والعـمل فى البـيت فى الريف عـمل جماعى.. تـتعاون فيه المـرأة مع جاراتها وصديقـاتها.. كل منهن تساعد الأخرى، ولا يكون العمل شاقاً أو متعباً.

متى يباح العمل؟

إن عمل المرأة فى الإسلام بينه لنا القرآن الكريم فى قصة شعيب وموسى عليهما السلام.. وتعالوا نتأمل القصة ونتدبر فيها..

يقول الحق ـ سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ[1] .. (٢٣) ﴾ [القصص]

إن موسى ـ عليه السلام ـ قد خرج من مصر خائفاً.. لأنهم تآمروا على قتله بعد أن ضرب واحداً فقتله خطأ.

وفى هذا يروى لنا الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ

(١) تذودان: تمنعان أغنامهما عن التفرق أو عن الزحام خوفاً من السقاة الأقوياء ومن الاختلاط بغنم الآخرين.

النَّاصِحِينَ (٢٠) فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢١) ﴾ [القصص]

خرج موسى - عليه السلام من مصر إلى فلسطين، وبعد أن عبر صحراء سيناء، وصل إلى بئر مَدْيَن، وجد جمعاً من الناس يسقون ماشيتهم.. كل يزاحم ليسقى ماشيته أولاً.

لاحظ موسى - عليه السلام - أنه يقف بعيداً عنهم امرأتان تريدان السقيا ولا تستطيعان.. تمنعان ماشيتهما من أن تذهب إلى البئر لترتوى، ولفت هذا المنظر انتباه موسى.. كيف أن هاتين الفتاتين جاءتا لتسقيا الماشية؟ وكيف أنهما تمنعان ماشيتهما من الذهاب إلى الماء والارتواء؟ وتقدم إليهما ليسألهما . ما هى حكايتهما؟

ويروى لنا القرآن الكريم هذه القصة فى قوله تعالى :

﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ[1] وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) ﴾ [القصص]

عندما سألهما موسى - عليه السلام - ما هى حكايتكما؟

اتضحت له الضرورة التى دفعت بهما للخروج من البيت، والاختلاط بالرجال عند البئر. فأبوهما شيخ كبير، لايستطيع

---

(١) يصدر الرعاء : يصرف الرعاة مواشيهم عن الماء.

أن يسوق الماشية إلى البئر لترتوى، وهما يقومان بهذا العمل.فكأنهما لا عائل لهما يستطيع أن يتولى السقيا عنهما، ولذلك اضطرتا إلى أن تقوما بالسقيا بأنفسهما.

ولكن انظر إلى الضمانات التى يجب أن تتوافر، عندما تضطر المرأة للخروج لعمل ضرورى.

أولاً: خرجت الفتاتان معاً ولم تخرج واحدة منهما بمفردها فقط، مع أن أباهما شيخ كبير.

إن المنطق يقضى بأن تخرج واحدة منهما وتبقى الثانية مع أبيها كبير السن لتخدمه وتلبى طلباته فى البيت، ولكنهما خرجتا معاً لتراقب كل منهما الأخرى، حتى لا تخرج واحدة بمفردها، وتذهب إلى أى مكان، ثم تعود وتقول كنت أسقى الماشية.

ورغم أن الفتاتين ابنتا نبى الله شعيب.. إلا أن ذلك لم يشفع لهما فى الثقة الزائدة التى تفتح الباب لإغواء الشيطان، ولذلك خرجتا معاً ـ كما قلنا ـ لتكون كل منهما فى رقابة الأخرى.

والشىء الثانى: أنهما عندما اضطرتا إلى الخروج لعمل لم تزاحما الرجال، بل وقفتا بعيدا تمنعان ماشيتهما من السقيا حتى ينصرف الرعاة، وهذا يعطينا المبدأ الثانى.. وهو أنه إذا اضطرت المرأة للخروج للعمل.. فلا يجب أن تزاحم الرجال، بل تبقى حتى ينصرفوا ولا تكون هناك مزاحمة، وهكذا نعرف أن ضرورة العمل لا يجب أن تجعل المرأة تزاحم وتختلط.

المجتمع الإسلامي يعاون المرأة

ماذا حدث بعد ذلك؟ يقول الحق ـ سبحانه وتعالى :

﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤) ﴾ [القصص]

إن موسى ـ عليه السلام ـ عندما وجدهما امرأتين بلا رجل مضطرتين للعمل.. قام هو بالمهمة.. فأخذ الماشية وسقاها بدلاً عنهما، وهذه هي مهمة المجتمع الإسلامي. إنه إذا اضطرت المرأة للخروج للعمل.. على الرجل أن يقضي لها مهمتها بسرعة.. فهذه هي المهمة الإيمانية التي قام بها موسى ـ عليه السلام.

وأذكر عندما سافرت إلى السعودية في عام ١٩٥٠.. كنت راكباً السيارة.. مع صديقي الشيخ عبدالمعطي الكعكي ـ رحمه الله ـ في طريقنا للعمل، وفجأة أوقف السيارة، ونزل منها واتجه إلى باب بيت، وكان أمام الباب لوح من الخشب، وعليه عجين خبز، ومُغطَّى بقطعة من القماش ، فحمل اللوح الذي عليه العجين، ووضعه في السيارة، فسألته عما فعل، فقال لي : عندما تجد لوح عجين أمام

منزل مغلق.. تعرف أن رب البيت غير موجود.. وأنه لا يوجد في البيت إلا النساء.. فأيٌ سائر في الطريق يأخذ لوح العجين إلى المخبز، ثم يعود به إلى مكانه بعد أن يتم خَبْزه.

هذه هي مهمة المجتمع الإيماني.. معاونة المرأة التي لا عائل لها في أداء ضرورياتها.. دون أن يجبرها على أن تخرج وتختلط بالرجال.

وقوله تعالى : ﴿ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ..(٢٤)﴾ [القصص] يبين لنا أن موسى ـ عليه السلام ـ رغم أنه كان محتاجاً إلى المال، ولم يكن معه شيء، إلا أنه سقى للفتاتين مجاناً دون أن يتقاضى أجراً عن ذلك.

إذن: فعمل المرأة عند الضرورة له شروط.. فالضرورة التي اقتضت خروجهما أن أباهما شيخ كبير، والعمل تم على قدر الضرورة، فلم يزاحما الرجال.. بل انتظرتا حتى يسقي الرعاة وينصرفوا.

إن المهمة الإيمانية للمجتمع.. هي مساعدة المرأة بدون أجر ومجاناً.. على أن تقضي عملها وتنصرف، ولذلك فإن موسى ـ عليه السلام ـ سقى لهما ـ كما قلت ـ بدون أجر رغم أنه كان محتاجاً للمال.

وفي هذا قدوة لمن أراد الأسوة الحسنة بنُبْل القيم الفاضلة النابعة من المجتمعات الإسلامية الراقية.

ماذا حدث بعد ذلك؟ عادت الفتاتان إلى الأب الشيخ ولم تكتما عنه قصة ما حدث.. بل أخبرتاه بالقصة، ولو أنهما عشقتا الخروج ومغادرة البيت، لأخفيتا عنه هذه القصة لتخرجا كل يوم لسقاية الماشية، ولكن لأنهما فعلتا ذلك وهما كارهتان.. أخبرتا والدهما بما حدث، فماذا كان المقابل؟

يقول الحق ـ تبارك وتعالى:

﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا . . (٢٥) ﴾

[القصص]

ولأن موسى ـ عليه السلام ـ سقى للفتاتين ولم يأخذ منهما أجراً.. ولم يكلمهما.. هذا السلوك جعل نبى الله «شعيب» يحس أن موسى ـ عليه السلام ـ فيه إيمان وأمانة.. لهذا أرسل واحدة فقط من بنتيه لكى تستدعى هذا الرجل الأمين لكى يعطيه أجره.

ولو أن موسى ـ عليه السلام ـ نظر إليهما أو حدّثهما أو

حاول أن يبدأ كلاماً معهما، أو قال أريد أجرى، لبعث شعيب بالفتاتين معاً، ولكن أمانة موسى جعلت هناك ثقة فيه، وإحساساً بأنه إنسان مؤمن ومُؤْتَمن وأمين، وجاءت الفتاة بعد أن دعا موسى ربه: ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤) ﴾ [القصص].. فاستجاب الله لدعائه وجاءه من سيدفع له أجر السقاية.. وعندما ذهب موسى إلى بيت شعيب ـ عليهما السلام ـ جلس معه شعيب بنفسه ليختبره ويختبر إيمانه وأمانته.

وسأله: ما هى قصتك؟

وهنا يروى لنا القرآن الكريم :

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٥) ﴾ [القصص]

أى أن شعيباً بعد أن استمع إلى قصة موسى واختبر صدقه وأمانته.. طمأنه وَهَدَّأ من روعه، وهنا جاءت الفرصة للفتاتين. مما يدلنا على أنهما كانتا تخرجان وهما كارهتان، وكان موسى ـ عليه السلام ـ هو الفرصة لكى تتخلصا من هذا العمل ومن الخروج.

إن موسى رجل قوى وأمين، وأنه يمكن أن يقوم عنهما بمهمة العمل مقابل أجر دون أن تخافا عدم أمانته، أو عدم

قدرته على العمل.. فاقترحت إحدى الفتاتين على أبيها، أن يستأجره ليقوم بالسقاية.

مصداقاً لقول الحق ـ تبارك وتعالى:

﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (٢٦) ﴾ [القصص]

وهكذا فى البداية.. جذب موسى انتباه الفتاتين ووالدهما بأدبه وأمانته، وأنه سقى لهما بلا أجر، وأنه عندما جاء موسى واختبره الأب بنفسه ووثق منه، وجدت الفتاتان الفرصة فى ألا تخرجا للسقاية.. وتستأجرا موسى لذلك.

ولكن كيف عرفت ابنة شعيب أن موسى قوى وأمين؟ عرفت أنه قوى، لأنه زاحم الرعاة ورفع حجراً ضخماً كان موضوعاً فوق البئر، وعرفت أمانته، لأنه لم ينظر إلى أى منهما، ولم تلحظ أى منهما عليه أى مسلك.. يمكن أن يَشينه.

مهــر التراضى

نبى الله شعيب.. أخذ المسألة بمنطق إيمانى، وقال لنفسه: كـيف أستـأجر رجـلاً يعـيش مع ابنتى فى نفس البـيت؟ إن المسألة ستكون فى غاية الخطورة. فكان الحل لهذا كله.. هو أن يعـرض علي موسى أن يتـزوج إحـدى الفتـاتين، وبذلك تكون الأخرى محـرَّمة عليه، ويستطيع مـوسى أن يعيش فى البيت حياة طبيعية، وقال له كما يروى لنا القرآن الكريم :

﴿ قَـــالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْـــدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ.. (٢٧) ﴾ [القصص]

أى أن شعيـباً عرض عليه الزواج، من واحـدة من بنتيه، ولكن مـوسى لم يكن يملك مـالاً، وفطن شـعـيب إلى ذلك.. فـحدد المـهر بالعـمل فـترة من الوقت، وفى هذا يقـول الله ـ سبحانه وتعالى :

﴿ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِندِكَ .. (٢٧) ﴾ [القصص]

وهذا يدلنا على أن مـبـدأ الأخذ والرد، والمـفـاصلة فى المهر كان موجوداً.

هذه هى قصة موسى وابنتى شـعيب التى أعطتنا حدود عمل المرأة. فعـمل المرأة لا يكون إلا للضـرورة. إنه لا عائل لها، والضـرورة على قدرها.. فلا مزاحمة مع الرجال.

ومهمة المجتمع الإيمـانى هو مساعدة المرأة على قضـاء حاجتها الضـرورية مجاناً.. وهدف المرأة هو أنها تبحث عن وسيلة لتريحها من العمل والخروج.

وعمل المـرأة يُوجد فى البيت فـراغاً كبيـراً.. وإذا كانوا يقولون إن المرأة هى نصف المجتمع فكيف لا تعمل؟ نقول: إن عمل المرأة قد أفسد المـجتمع كله وليس نصفه. فالطفل محتاج إلى أمه احتياجاً كـبيراً.. فعندما يولد هو محتاج إلى لبن الأم.

إن العالم كله الآن يصرخ بالعودة إلى الرضاعة الطبيعية بعد أن عـرفوا معنى أن يرضـع الابن من ثدى أمه.. إن هذا أمر هام جداً بالنسبة للتكوين النفسى للطفل، وأن تفرغ الأم لطفلها، يجعل الطفل يحس بالأمن والأمان طوال حياته، وقد يسـتطيع الأب أن يأتى لطفله بعـشريـن خادمـة، ولكنه لن يستطيع أن يأتى له بقلب أم واحدة ترضعه حنان الأمومة.. ذلك أن الابن.. وهو يرضع لبن الأم يصبح جزءا منها.

لذلك حـرم الله ـ سـبحـانه وتعـالى ـ زواج الإخـوة فى الرضـاعة، لأن تكوينهم أصـبح واحـداً.. اللبن الذى تكونت منه أجـهـزة وخـلايا الطفل.. هو الذى تكونت منه أجـهـزة وخلايا إخوته فى الرضاعة، ولكننا الآن فقدنا هذا كله.

ماذا يحدث للموظفة ؟

وأنا جالس فى منزلى فى حى الحسين.. أرى الموظفة فى مديرية الأوقاف تجر أولادها ثم تتركهم عند البواب، أو فى أحد المحلات المجاورة، لتذهب إلى عملها.. بالله عليك هل هذه تربية؟

وصدق شوقى ـ رحمه الله ـ حين قال :

ليس اليتيمُ من انتهى أبواه
من هَمِّ الحياةِ وَخَلَّفَاه ذليلا
إن اليتيمَ هو الذى تَلْقَى له
أُمًّا تَخَلَّتْ أو أباً مشغولا

الأم الآن تخلت عن أولادها.. ثم يأتى من يحدثك عن عقوق الأبناء.. تقول له: قبل أن تتحدثوا عن عقوق الأبناء اسألوا أنفسكم أين الحنان الذى رآه الابن من أبويه، وماذا رأى من أمه؟ إنها تركته طوال اليوم فى الشارع بلا رعاية ولا عناية، والمرأة التى تقول أخرج للعمل.. معناه أنها قد تخلت عن أولادها وعن مهمتها فى البيت.. والمرأة التى تشكو أنها تعمل طوال النهار.. عندما تعود للمنزل تصبح جثة هامدة.. لا تستطيع تحمل أى عمل آخر، وهى إما أن تكون أماً وربة بيت، أو امرأة عاملة.

ولو تتبعت أى امرأة تعمل.. تجد أنها تصر على ذلك فى شبابها، فإذا كبرت تطلب إجازة بنصف المرتب، أو تحاول التخلص من الوظيفة، ولكنها طالما تسمع كلمات الإعجاب فإنها تصر على العمل، وعموماً فإن أحداث الحياة ستضطر الناس اضطراراً أن يعودوا إلى الصواب ويعرفوا أن مهمة المرأة الأولى فى بيتها، وبين زوجها وأولادها، وأن العمل الذى تقوم به فى البيت، أهم مئات المرات من العمل الذى تقوم به خارج البيت.

وفى أمريكا تعقد النساء الأمريكيات مؤتمرات الآن للمطالبة بعودة المرأة لبيتها وتربية أولادها. لأن المجتمع هناك قد وصل إلى درجة من الشقاء بالنسبة للجيل الجديد من الشباب والشابات، تنذر بانهيار كل شىء، ولكننا هنا فى مصر نقول: لابد أن تعمل المرأة حتى تبنى المجتمع.. أى مجتمع ذلك الذى يُبنى على خراب الأجيال القادمة وضياعها!! أى بناء للمجتمع فى إعداد الطعام فى أوقات العمل!!

على أننا قبل أن ننتهى من هذا الكتاب.. لابد أن نتحدث بإيجاز عن معنى الآية الكريمة :

﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ .. (٣٤) ﴾

[النساء]

الناس تفهم معنى القوامة.. على أساس أنه تملك وتفضيل، ولكن الحقيقة غير ذلك تماماً. فالقائم على الأمر.. هو الذى يجعل كل حركته من أجله.

والله ـ سبحانه وتعالى يقول :

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ.. (٣٣) ﴾ [الرعد]

أى أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يرعى كل نفس، ويدبر لها رزقها وأمور حياتها، والقيام ضد القعود.. ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ.. (٣٤) ﴾ [النساء]

يعنى متحركين فى الحياة من أجل النساء لكفالتهن، وتوفير المال والطعام ومطالب الحياة لهن.. أى أن القيام هنا معناه أنه مسئول عنها، وعن توفير مطالبها هى وبيتها وأولادها.

وقوله تعالى : ﴿ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ.. (٣٤) ﴾ [النساء].. لم يحدد الله ـ سبحانه وتعالى ـ مَنْ المفضل على مَنْ.. فكأن الرجال لهم تفضيل فى نواح معينة، والنساء لهنَّ تفضيل فى نواحٍ معينة، كل مفضل بما يضمن له أداء مهمته فى الحياة.

وهناك خطأ آخر.. هو أن المرأة ليس لها استقلال ذاتى فى الإيمان، وإن من حق زوجها أن يدفعها إلى المعصية. نقول : إن هذا غير صحيح. وقد قال الله ـ سبحانه وتعالى :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا[1] فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (10) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (11) ﴾ [التحريم]

وهكذا نرى أن زوجَتَيْ نبيين لم يستطع زوجاهما أن يدخلا فى قلبيهما الإيمان.

وزوجة فرعون الذى نَصَّب نفسه إلهاً يُعبد فى الأرض.. لم يستطع أن يدخل فى قلب زوجته الكفر. مما يدل على أن هناك استقلالاً إيمانياً تماماً للمرأة.

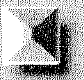
ونأمل أن يكون الله قد وفقنا إلى إلقاء الضوء على بعض ما جاء فى القرآن الكريم عن المرأة، وأن يكون فى هذا رد على كل متطاول على الإسلام افتراء أو اجتراء عليه، وهو ـ سبحانه وتعالى ـ السميع المجيب.

---

(١) خانتاهما : أبطنت كل منهما الكفر وساعدت خصوم زوجها.

الفهـــــرس

رقم الإيداع ٤٨٠٥/٩٨
الترقيم الدولى
I. S. B. N.
977 - 08 - 0732 - X




هذا الكتاب ..

المرأة فى القرآن

فى رحلة العطاء المتواصل لفضيلة الإمام الشيخ محمد متولى الشعراوى إشراقات وإلهامات متجددة تنير الطريق للساكين، وتهدى الحائرين، وتعلم البشرية ما خفى عليها من أمور الدين.

إن «مكتبة الشعراوى الإسلامية» هى إحدى هذه العطاءات التى تولت «مؤسسة أخبار اليوم» إصدارها ، وصدر فى إطارها العديد من الكتب، يتناول كل القضايا الدينية التى تهم كل مسلم ومسلمة، وتفتح آفاقا جديدة فى تفكيره.

وهذا الكتاب فيض أفاضه رحمن الدنيا والآخرة على إمام الدعاة، وأجراه على لسانه فى لمحات إيمانية ونفحات قلبية، ينير طريق الهدايا للحائرين المتحيرين.

63

٤ جنيهات